الأديان في كفة الميزان

تأليف

محمد فؤاد الهاشمي

الكتاب: الأديان في كفة الميزان

الكاتب: مُحَمَّد فؤاد الهاشمي

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الأديان في كفة الميزان/ مُحَمَّد فؤاد الهاشمي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٦ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٤٩٦ – ٤٤٦ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٨٤٧ / ٢٠١٩

الأديان في كفة الميزان





مقدمة

في جلسة مع صديقين في مكتب أحدهما، وكنا نطرق من الحديث عامة وخاصة، حتى دق التليفون، فتناول أحد الصديقين السماعة، ودار الحديث بينه وبين المتحدث من الجهة الأخرى، وكان كأنه بين تلميذ وأستاذه، حيث كان صديقي يتحدث في أدب جم مما جعل ثاني الصديقين يسأل عن المتحدث الذي لم يكد يسمع اسمه حتى بدت على وجهه أمارات تنم عن مدى احترامه وتقديره للاسم مما أثار فضولي، فسألت عمّن يكون هذا المتحدث الذي حاز إجلال صديقي، فرد أحدهما يقول: المتحدث كان متهمًا في إحدى القضايا، وكنت حينذاك القاضي الذي حكم عليه بالسجن خمس سنوات. وكنت مطبقًا لأحكام القانون حيث لم يتمكن من إقامة الدليل على براءته من تهمة عرفت فيما بعد أنه كان بريئًا منها، وقد عرفت ذلك بعد أن خرج من السجن واعتزلت القضاء، ثم أتت الصدفة التي جعلت كلاً منا صديقًا للآخر بما يشبه المعجزة، ثم استرسل صديقي في حديثه عن صديقه وقال:

عرفت المتحدث متدينًا عارفًا لدينه، عالما بقواعده وأسراره، مطبقًا لنصوصه وأحكامه، غيورًا على الدين، لا يخاف في الحق لومة لائم، مما كان له الأثر في أخلاقه، فقد جمع بين عذوبة الحديث وحسن المجاملة التي لم تكن على حساب الدين، مهذبًا شديدًا عندما يمس ماس كرامة الدين. واستطرد في حديثه: لقد جعل الدين من الذين يفهمون أصوله أناسًا

يختلفون في مشاربهم عن باقي البشر: فالمروءة، والشهامة، والحلم من أهم صفاتهم. ثم تحدث عن نفسه: كنت لا أعرف عن الدين شيئًا، كما كنت أظن أن الدين بدعة مبتدعة، أو خرافة من الخرافات، أو رجعية متأصلة في نفوس معتنقية، ثم عرفت صديقي المتدين فعلمت ما لم أعلم عن الدين، وعرفت الله فيه، وتطورت كراهيتي للدين حبًا، وتحول بغضي للمتدينين عشقًا، وهديت إلى صراط الله العزيز الحميد، فتبدلت إنسانًا غير الإنسان الأول، أصبحت أخشى الله وأراقبه في كل غدوة وروحة.

وهنا بدأت أحس بالرغبة الملحة في الاشتراك في الحديث، مع أني كنت زاهدًا فيه في بدء الجلسة، فتحدثت عن التدين والعقيدة، وأثر الدين على الضمير الإنساني، وما يحدث من تطهير وجداني، وكيف أن الإنسان متدين بفطرته، وأن العقيدة بالألوهيات هي أسبق العقائد التي غرست في الإنسان يوم خلقه.

قصة الخليقة:

فقد خلق الله آدم من تراب ونفخ فيه من روحه، وليس في الناس من يجعل قصة آدم عليه السلام، الذي خلقه الله وأمر الملائكة أن يسجدوا له، (فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إلاَّ إبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)، فغضب الله عليه وطرده من رحمته، وقال يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة، وحذرهما أن يفتنهما الشيطان فيخرجهما من الجنة.. ولكن الشيطان استطاع أن

يستدرجهما إلى المعصية، فأكلا من الشجرة... وما لبسا أن أدركهما الندم، وأرادت المشيئة الإلهية أن يغفر الله لهما، ولكنهما أُخرجا من الجنة إلى الأرض حيث هبط الشيطان، واستخلف الله آدم وبنيه في الأرض، وكانت الملائكة تستشرف إلى هذه المرتبة الرفيعة حين أخبرهم سبحانه أنه جاعل في الأرض خليفة، ولكن آدم وبنيه ذهبوا بشرف هذه الكرامة لما ميزهم الله به من الأسرار والمواهب التي تؤهلهم لذلك.

فحادث ابني آدم الذي قتل أحدهما الآخر حقدًا من القاتل على المقتول وحسدًا له، لأنه قدم قربانًا لربه فتقبل منه ولم يتقبل من الآخر، وبعد أن ارتكب القاتل جريمته لم يعرف كيف يواري سوأة أخيه، فاعتراه ندم ولو إلى حين. فبعث الله إليه غرابًا ليريه كيف يواري سوأة أخيه، فنبش الغراب في الأرض، وتعلم الإنسان كيف يواري خطيئته في التراب، فيستيقظ فيه الضمير ويقع تحت وطأة العذاب الوجداني.

ولست أقصد من سرد القصة علاجًا مثل الذي طرقه الثعالبي في عرائسه، أو تتبعًا للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار في عرضه، إنما قصدت أن أخرج من القصة بمعاني تتفق والهدف من إخراج هذا الكتاب، الذي قصدت به أن أضع الميزان وعلى كفته الأديان وضعية، أو سماوية وكيفية علاجها للإنسان ومشاكله التي تتطور بتطور رُقيه وحضارته.

العقيدة:

فمن قصة خلق الإنسان وخروجه من الجنة ومؤهلاته من الأسرار والمواهب نشأت الطاعة والمعصية، والسيئة والحسنة، وتولدت في الإنسان صورته الحية، وعمرت هيكله صورته المعنوية، وفُطر على أن يتطلع إلى قوة أكمل من قوته، ويبحث عن قدرة أعظم من قدرته، وعرف أن إدراكه محدود وأنه في حاجة إلى إدراك يفوق إدراكه، وأن أسراره ومواهبه عجزت أمام أشياء، فبدأت نفسه تستشرف إلى جهة تملك أسرارًا ومواهب أسمى من أسراره، ولذا نجد أن الإنسان دائمًا نزاع إلى أن يشرئب ويتسامى بنفسه ليطل على صورة معنوية أتم من صورته يَدِين لها بالخوف والحب والطاعة، وهذه العاطفة هي أسبق ما غرس في نفس الإنسان من عواطف منذ خليقته، ومعنى ذلك أن الإنسان جُبِل على أن يكون ذا عقيدة في صحة شيء أو بطلانه، أو صحة شيء وبطلان آخر.

وكما أن الإنسان جُبِل على حب الاحتفاظ بكيانه الاجتماعي، وكمال حياته الداخلية والخارجية، مما دفعه إلى الموازنة بين ما يعيش فيه من ظواهر طبيعية وما تتطلع نفسه إليه من حقائق تسود تلك الظواهر وتبسط سيطرتها الكاملة على تلك الظواهر؛ وهذا يجبره على الاعتقاد بصحة جزء كبير من الحقائق الوجودية التي يزكيها تدبره في الوجود أو استنتاجه، فلابد أن يكون متدينًا بطبعه من حيث أنه دائم الرغبة في التسامي سواء كانت الرغبة شعورية أو لا شعورية، وحسبنا أنه ينشد في وجوده غاية، ويستهدف في حياته وما بعدها هدفًا أسمى من أهداف الجسد ومراميه.

التأمل:

وما دام الإنسان يتطلع إلى وجود غاية أو الوصول إلى هدف فهو معتقد بالطبع، والاعتقاد وليد التطلع، والتطلع وليد التأمل، حيث لا يمكن أن يقال أن التأمل ناشئ دون أساس، فالتأمل لا يمكن نشوؤه إلا عن معتقد أو لأجل اعتناق معتقد، فقد يبدأ الإنسان مقلدًا أبويه دون إدراك لحقائق الأمور والمعتقدات التي يسيران عليها، غير أنه حين يشب ويتأمل في حقائق الوجود، يظهر له التأمل ما خفي عليه إن كان من أولي الألباب، فتتولد عنده الرغبة في البحث عن أدلة الإثبات والنفي، فإذا اعتراه شك في كنه شيء مما يعتقده، وقام صراع خفي أو ظاهر بين عقله وعقيدته، فإنه يبدأ استعراض المبادئ التي يقوم عليها اعتقاده ابتغاء إيجاد نتائج يؤيدها اليقين، وبذلك يرسخ يقينه فيما يعتقد أو يشك، ويكون هنا المأزق الحرج حيث أنه يعز عليه أن يلغي دينه ومعتقده، كما يعز عليه أن يلغي عقله، ومن ثم يحاول المزج بينهما، ثم يصدم بعقبة كؤود حين يجد أن هذا المزيج غير مستساغ؛ لأنه غير مستطاع أن يمزج بين الحق والباطل.

الشر والخير:

ومن التأمل عرف الإنسان كيف يميز الخير من الشر، وعرف أنهما صفتان متنافرتان لا يمكن أن تشارك إحداهما الأخرى في كيان مخلوق واحد؛ وهذا ما يدل على أن الإنسان الأول فرق بين شعائر السحر والشعوذة، وبين شعائر العبادة، وكان هذا التمييز بداية لحلول كثيرة عالج

الإنسان بها مشاكله. ولما كان الإنسان نزاعًا إلى التطور، فقد ظل يتدرج في مراقي الحضارة، وتطور عقله، ولكنه كان كل مرة يبحث عن القوة المسيطرة على الكون، وهو جزء من الكون حتى عبد آلهة كثيرة متعددة، حتى جاء حين من الدهر فعبد إلهين: أحدهما يرمز إلى النورو وسمى الآخر إله الظلام، وأشار إلى النور بالخير، فكان إله الخير، وعبر عن الشر بالظلام، فكان إله الظلام هو إله الشر.

ورغم هذا التطور الإدراكي لم يرضَ الإنسان به، حيث أن النزعة فيه من بدء خليقته واضحة المعالم، وذلك ما يدل عليه استغفار آدم وتوبته، وندم ابنه الذي قتل وعجز عن أن يواري سوأة أخيه.

ومن هنا يمكن أن نقول أن نزعة التوحيد قد لازمته منذ نشأته وإن كانت غير مبلورة أو ناضجة؛ ولذلك تولدت عنده صفة عدم الاقتناع مما ينتج عنه أنه عرف أشياء سميت بأسماء وأصبحت ضمن نواميس حياته؛ فالوهم، والخيال، والواقع، والتكامل صفات أصبحت من أهم الركائز التي يعيش عليها الإنسان، وقواعد لازمة له في حياته، وعلى هذه الركائز والقواعد بنى محور البحث، ثم صار البحث بحوثًا، وبذلك تعددت الآراء وكثرت الحلول، وجدّ واجتهد الحكماء وفقهاء الأديان في تفسير الخير والشر على أساس تلك الركائز.

فمن قائل: أن الشر وهم وخيال، وأنه عرض زائل يزول ويقوم على أنقاضه الخير، وأن الشر ألم موهوم، والخير لذة موهومة. ومن قائل يقول:

أن الشر لا يناقض الخير، ولكنه جزء متمم له في الحياة؛ إذ لا معنى للإفطار بغير صوم، أو للصلاح بغير طلاح، ولا معنى للعزة بغير ذلة، كما أن لا معنى للحياة بغير الموت، ولا معنى للمعصية بغير طاعة، ولا معنى للفرح إلا بالترح، ولا معنى للجمال ما لم يكن هناك قبح، وذلك ما يقال عنه بالتكامل.

ومن الذين بلغوا مراتب في هذه الأبحاث الذين يؤمنون بالواقعية، وهم أقرب إلى الحقيقة من غيرهم، حيث يصلون إلى حلول تبلغ مرتبة تريح عقل الإنسان، وإن تفرعت به بعد ذلك إلى طرق أخرى وكثيرة في البحث والتنقيب عن الحقائق التي يحاول الإنسان جاهدًا البحث عنها؛ فالمخترع عندما يفكر في اختراعه يكون قد بنى تفكيره على أثر رؤية شيء مطبق في حياته العملية، أو عثر عليه بطريق الصدفة، ثم يبدأ العمل صغيرًا، وربما كان الخيال رائده في بادئ الأمر، ثم يصدم بالواقع فيدخل عليه التحسينات والتطورات حسب الواقع، ثم تنتهي التجارب وينتهي الإدراك ويقف عند حد معين تسمى الآلة بعدها اختراعًا، ويتطور الزمن وتتطور الحضارة وتصبح الآلة عاجزة تمام العجز أمام احتياجات البشر والتزامات الحياة المتطورة، ثم يأتي مخترع فيخترع آلة تتمشى مع المدنية والحضارة، وهنا يكون إدراك أتم من الإدراك الأول.

الديانات:

وكذلك أرادت حكمة الله سبحانه وتعالى ورحمته بعباده، وهو الذي أراد أن يتطور الإنسان ويترقى، فبسط رحمته على عباده بأن أرسل إليهم الأنبياء والرسل هُداة، نبيًا بعد نبي، ورسولاً تلو رسول حسب احتياجات كل عصر وعقول البشر في ذلك العصر، وهؤلاء الرسل والأنبياء جميعًا إنما هم يمثلون أسرة واحدة ذات فروع وجذوع، وذلك هو واقع التاريخ، وكما ورد في الكتب السماوية جمعاء، وجاء القرآن مصدقًا لتلك الكتب، فأورد قول الله عز وجل: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، إذ قال لبنيه، ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون).

ومن أولئك الرسل والأنبياء الذين كان يبعثهم الله منذ قيام تاريخ البشرية حينًا بعد حين كلما خبا نور الروح الإلهي وراء أقذار البشرية والرموز الكهنوتية، وكلما وضع مصباح الروح تحت مكيال المادة، وطمست معالم القانون الأول ليقيموا منار الهدى وينعشوا روح التعاليم الإلهية، وينقذوا التوحيد من براثن الشرك والأساطير. وهؤلاء الأنبياء والرسل عددهم لا يحصى لأنه كبير جدًا، متوالي خلال الدهور والعصور، ومن أخصهم وأعظمهم الرسل المكرمون: آدم، ونوح، وإدريس، وإبراهيم، وموسو وعيسى، ومُحَّد عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام، وأولئك أولو العزم من الرسل.

والديانات كانت في عهد مؤسسيها منار الهدى، ومدارسًا للحب والسلام، ومبعثًا من بواعث طمأنينة القلوب. وبعد أن مات مؤسسو الأديان سار أتباعهم بسيرة صالحة تناسب نوعًا ما سيرة هداتهم الأطهار، وإن لم تتفق معها تمامًا. ثم قضيت عصور أولئك أيضًا، وابتدأت عصور مقلديهم الذين انحطوا عمن تسلموا منهم أمانة الدين، والهدى، والإيمان، والحق انحطاطًا هائلاً في جميع نواحي الحياة الروحية.

وهكذا انقضت عصورهم وقام على آثارهم غيرهم، وجلّهم يجتبي في نفسه مجد العالم، وإن كانت أزياؤهم ونفوسهم تمثل المجد الروحي. وأصبح الدين مع سمو جوهره وحقيقة مصدره قضايا كلامية لا تجد لمسائلها وهوامشها المتسعة منطقًا يبررها، ولا إيمانًا يسندها، ولا عقولاً تقبلها، وإن كانت من أعز الحقائق في أصولها.

وغير هؤلاء الرسل والأنبياء فقد ظهر حكماء وضعوا نواميس وإن كانت وضعية، إلا أنها لا تبعد كثيرًا من نواميس الأديان، وإن تخللها بعض الثغرات. وذلك سُنّة الإنسان؛ أنه لا يمكن أن يصل إلى الكمال المطلق فيكون عمله ناقصًا. وكاد هؤلاء الحكماء أن يكونوا أنبياء، وهم على كثرة عددهم، ولكن لم يشتهر منهم وأصبح له أتباع ومدارس ومؤمنون بحكمتهم وتقديسهم إلا كرشنا، وبوذا، وهرمس، وزوزستر (زردشت)، كما ظهر فلاسفة آخرون مثل: طاليس، وصولون، وسقراط، وأبي قور، وفيثاغورث، وأفلاطون، وأرسطوطاليس، وكل هؤلاء يمثلون مدرسة واحدة تعمل لنشر تعاليم ومبادئ قريبة من التوحيد، تعاليم ترقي الروح إلى معارج القدس،

وتطهيرهاو وتصفيتها مما يشوبها من خبائث الصغائر الأرضية، وعلى ذلك فإننا لن نتعرض في كتابنا هذا للأديان أو نمسها إلا بمقدار ما تنفض عن حقيقتها الجميلة غبار الرياء، والنفاق، والخداع، والتصنع، وتدفع عنها قول الإلحاد، وفحش السخرية، والازدراء.

وإنما أردت بكتابي هذا أن أوضح طريقة المبادئ والأديان في علاجها للمشاكل المتعلقة بالإنسان من الناحية الروحية والمادية، ووقوفها بجانبه من مولده إلى مماته، كل دين على حدة وفي كل مشكلة. ثم يظهر أي دين من الأديان السماوية قد نظّم حياة الفرد والمجتمع حتى يلجم المفترون على الأديان وتخرس ألسنتهم.

وإن كنت سأبدأ بالتعرض للمبادئ الوضعية لكي يعلم من لا يعلم أن المبادئ الوضعية مهما بلغت حكمة واضعها فلابد أن تكون فيها ثغرات تكون عاملاً من عوامل اندحارها وزوالها، وأنه لا يبقى إلا من كان من قِبَل الله خالق الحكماء ومرسل الرسل والأنبياء الذي يعلم حاجة عباده، وما هو شر لهم وما هو خير.

والله الموفق إلى سواء السبيل.

المؤلف

الباب الأول

الأديان والعقيدة

تمهيد:

قبل التعرض للأديان السماوية ومقام العقيدة فيها، آثرت التعرض لبعض الأديان القديمة التي لم يرسل بها نبى أو رسول، والتي لم يوصى بها من السماء؛ وذلك لكي نتبين الوضوح التام والنقاء الفطري الذي فطر عليه الإنسان من توحيد لله وعدم الشرك به، لولا أن دخلت بعد ذلك الأديان في طور الانحدار وما أحدثه الكهنة والقواد الروحانيون من بدع ورموز وطقوس حولت العبادة فيها إلى شرك وإشراك.

ومن أهم الديانات التي نتعرض لها:

١- الديانة البرهمية.

٢- الديانة البوذية.

٣- ديانة قدماء المصريين.

٤- الديانة الصينية الكنفوشيوسية.

٥- ديانة الكلدانيين.

٦- الديانة الفارسية.

٧- الديانة اليونانية.

٨- ديانة الرومان.

وبعد أن نوفي الغرض المقصود من تلك الديانات، نخرج منها إلى الديانات السماوية المشهورة؛ كالديانة اليهودية، والديانة المسيحية، والدين الإسلامي، وليس المقصود من التعرض لتلك الديانات إلا الحصول على ما يوصلنا إلى الغرض المقصود من هذا الكتاب.

الفصل الأول

الديانة البرهمية

الله:

جاء في أحد فصول الفيدا ذكر الإله واسمه (برهما سباتي) حسب ما هو مكتوب باللغة السنكسكريتية القديمة، ومعناه (رب الصلاة) مجيب الدعاء، المتصرف في ملكوته السماوي والأرضي إله الحق.

إذن، فالله عند قدماء البراهمة واحد لا شريك له، سرى منه الروح في جميع الكائنات من جماد، ونبات، وحيوان، وقد ورد ما يؤيد ذلك في أسفار الفيدا، وما ترجمته (أنا الله نور الشمس، ضوء القمر، بريق اللهب، وميض البرق، صوت الريح، أنا الأصل القديم لجميع الكائنات، مني الحياة لكل الوجود، معطي الصلاح، أول، آخر، حياة، موت، لكل مخلوق حي).

عقيدة البراهمة:

وتتلخص عقائد البراهمة في بنود تدل على وحدانية الله، وهذه هي البنود المهمة في الموضوع.

١- اسم الإله الظاهري (برهما سباتى)، والاسم الخفي (زيوس).

٢- الإله هو الأصل الأزلي الذي يستمد منه كل شيء وجوده، لا تدركه الحواس وقد يدرك العقل بعض صفاته.
٣- إن الإنسان حركة متغيرة مستمدة، وروحه قبس من نور الله انفصل عنه إلى أجل ينتهي، ثم تعود إليه بعد انتهاء الأجل، وذلك كالبخار الذي يصعد إلى السماء ثم يعود إلى الأرض أمطارًا تجري في الأرض أنهارًا.
٤- غاية كل إنسان في الحياة الاتصال بالله والرجوع إليه.

كتب الديانة البرهمية:

وكل هذه العقائد مكتوبة في كتاب الفيدا المقدس الذي لم يعرف حتى الآن بدء كتابة أسفاره، وإنما المحقق أن هذه الأسفار أقدم من التوراة، وتتألف أسفار الفيدا من أربعة أسفار هي:

أ) الريجا فيدا.
ب) الساما فيدا.
ج) الباجورا فيدا.
د) الأبارا فيدا.

وكتب أخرى مفسرة تسمى (دماندرا ماسترا)؛ أي كتب الشريعة. وكل التعاليم الدينية في أسفار الفيدا على غاية من البساطة دون تعقيد، وتدعو جميعها إلى توحيد الله.

فلاسفة وكهنة الديانة البرهمية:

وأهم من تعرضوا لشرح أسفار الفيدا الفيلسوف الهندي (مانو)؛ الذي قال عن الإله أنه كائن بنفسه لا تصيبه الحواس المادية، بل يُعلم بالروح فقط. و(كلوكا) الكاهن والفيلسوف، وهو أشهر مفسري الفيدا القائل: (إن المشتركين في الأسرار مع تقديمهم القرابين لبعض قوى الطبيعة المتعددة، لم يكونوا معتقدين إلا برب واحد هو نبع كل عدل وحكمة، المدبر الكل، والمرتب لنظام الكون، ولا اسم له إلا المستحق العبادة برهما). ومن الفلاسفة المصلحين: كرشنا، وكان من تعاليمه: (أن الجسد زائل، إنما النفس الخفية عن النظر سرمدية).

تعاليم الديانة البرهمية:

أهم التعاليم في الأديان البرهمية القديمة تتلخص في الوصايا العشر للدين البرهمي وهي:

١- الكائن الإلهي.
٢- مقابلة الإساءة بالإحسان.
٣- القناعة.
٤- الاستقامة.
٥- الطهارة.
٦- كبح جماح النفس.
٧- معرفة الفيدا.

٨- اجتناب الغضب.

٩- الصبر.

١٠- الصدق.

وأما ذبح الحيوانات وتحريم ذبح بعضها وغير ذلك من الإضافات، فلم تظهر إلا بعد زمن بعيد حين وضعت الطقوس وتزايدت الرتب الكهنوتية، ففرضت على الشعب ذبح بعض الحيوانات وتقديس بعضها، أو تحريم أكل اللحوم بتاتًا.

انحدار الديانة البرهمية:

انحدرت الديانة الهندية عندما كثر الكهنة الذين جعلوا للديانة أسرارًا خفية، وأسرارًا ظاهرة؛ فكثرت الرموز والطقوس والشعائر، ومن هنا نشأ ما لم يكن أصلاً في الديانة البرهمية، فنشأ الثالوث الهندي المعروف وهو: (برهما- فشنو- سيفا).

فقد كانت العبادة في الديانة الهندية القديمة قاصرة على أناشيد (الريجا فيدا)؛ وهي أقدم أسفار الفيدا، وكان الهنود لا يعرفون إلا إلهًا واحدًا تحت إرشاد العباد والحكماء المخلصين، ثم ظهر الكهنة على مسرح الحياة فابتدعوا من الأسماء والمسميات ما لم يكن له أصل في كتب الفيدا، بل تعدوا وغيروا بعض معاني الفيدا؛ ولنضرب مثلاً على ذلك أن كلمة (ورترا) المستعملة في كتب الفيدا المقدسة، وكانت ترمز إلى الروح الموكلة

بالرياح الثائرة الهوجاء، فقد أطلقوها وأحلوا محلها كلمة (سيفا) التي وردت في الثالوث الهندي.

ومن هنا يمكن أن يكون اليقين أن الثالوث الهندي بدعة من مبتدعات الكهنة، وأصبح بدل الإله الواحد آلهة ثلاثة، وأصبح الثالوث (برهما، فشنو، سيفا) على اعتبار أن فشنو وسيفا إلهان وقوتان نشأتا عن برهما، وقد فسروا الثالوث الهندي أن برهما هو الإله الخالق، وفيشنو هو القوة الحافظة، أو الإله الحامي للخليقة، وسيفا القوة التي تغني، وتعيد، وتحول.

التعبد الحالي عند البراهمة:

اتسع نفوذ الكهنة فأنشأوا الامتيازات والاختصاصات، ووضعوا نظام الطبقات التي نشير إليها دون تناولها بالشرح؛ والطبقات عند الهنود أربع، تقل الواحدة عن الأخرى في المنزلة حسب الترتيب، فجعلوا أرقى الطبقات احترامًا وتجلة، ومنحها الامتيازات التي لا يحق لغيرها المشاركة في تلك الامتيازات طبقة البرهماتمان: وهم الكهنة والعلماء، ثم يليها في المنزلة طبقة الخاترباس: وهم رجال الحرب وحماة الأوطان، ثم تلي بعد ذلك طبقة البانيان: وهم الزراع، والتجار. ودنيا الطبقات هي طبقة السودراسك: وهم أرباب الحرف والمهن الدنيئة، وهم المنبوذون.

وقد قصر الكهنة على أنفسهم وعلى المشتركين في الأسرار (تلاميذهم) معرفة الحقائق العلوية وتوحيد الله وستروا الحقائق عن الشعب،

مما جعل الناس تلجأ إلى الشرك وتعدد الآلهة، مما أوجد في نفوسهم اليأس من الخلاص في حياتهم الحاضرة أو المستقبلة، حيث تعلم الهندي أن خلود الروح غير مُدرك إلا أن تصل إلى درجة النقاء؛ ولذا يكلف البرهمي نفسه أنواع الشدائد والجهد في العبادة في حياته بما فوق طاقته؛ لكي يكفر عما وقع منه من معاصي، أو عما سيقع منه من ذنوب مقبلة، وهو دائم الكآبة والخوف، كثير الهموم، لا أمل له حتى في الموت؛ لأن الموت نفسه في نظره ليس مخلصًا من الحياة المقبلة.

الفصل الثانى

الديانة البوذية

قبل الاستطراد في التحدث عن الديانة البوذية، يجب أن نوضح أنه قبل ظهور الديانات الهندية – وأقدمها ديانة البراهمة– كانت هناك ديانات سماوية ودعوات ربانية أتى بها أنبياء من قِبل الله عز وجل، أمثال: شيث وأدريس عليهما السلام، ولما طال الأمد على القوم تعرضوا لتيارات مختلفة وعديدة حتى جاءت الديانة البرهمية، فساروا عليها وآمنوا بها حتى بدا الانحراف الكهنوتى عن مبادئ تلك الديانة، وكثرت المذاهب في الهند وانتشرت الآراء وتعددت؛ فانحرف أتباع البرهمية إلى الوثنية وعبادة التماثيل، وساروا خلف كل بدعة. وبذلك كثرت الشيع وكثرت أتباع كل شيعة، وفقد البراهمة روح ديانتهم ونسوها، وانجرف الهنود انجرافًا خطيرًا مع التيار حتى وصلوا إلى أخطر مراحل الوثنية، حتى ظهر (ساكيا موني)، أو (سيزارا ساجوتاما) المشهور باسم (بوذا) بدينه المبتدع.

والحقيقة، البوذية ليست في نفسها ديانة سماوية أو دين وضعي، ولكنها مذهب فلسفي مشتق من الديانة البرهمية مع إدخال تعديلات لبعض القواعد.

تاريخ بوذا:

ولد جوتاما مؤسس المذهب البوذي في منتصف السنة الستمائة قبل الميلاد، وكان أبوه أمير يسمى (كايبلا فاستو)، وسمى (سيزاراسا)، أو (ساكيا موني جوتاما)، واسم ساكيا موني يعطي معنى (المتبتل من عائلة ساكيا). وعاش عيشة ناعمة وتزوج في سن التاسعة عشر.

كانت آمال جوتاما متجهة من صغره إلى التكمل في الأخلاق والعادات، ولما بلغ التاسعة والشعرين من عمره وأخذ يتأمل في حالة بني قومه وما وصلوا إليه من الذلة والمسكنة نتيجة نظام الطبقات الذي أحدثه كهنة البراهمة بغية إبقاء الشعب على حال من الجهل والغفلة ليتوصلوا بهذه الوسائل للإمساك بزمام الشعب والاستعلاء عليه من كل ناحية، مما أدى إلى انحطاط الشعب الهندي، فعكف على عبادة الأشخاص، والتماثيل، والحيوانات.

فكر جوتاما مليًا، وظل يفكر حتى زهد في العظمة الدنيوية ومجد العالم الزائل، وكرهت نفسه ملذات الحياة. ومن هذا التفكير بدأت رغبته تبدو جلية في الإصلاح، فغادر بلاط أبيه وترك ناعم الفراش ورغد العيش بعد أن زهد في الحياة الدنيوية، وخرج تاركًا زوجته وبيته غير مفكر ولا ميال إلا لما عزم عليه، فقد خرج إلى الجبال والأحراش الكثيفة المليئة بالوحوش التي لم ترهبه، بل أنزوى يستهدي الفكر، ويهذب الروح، ويستطلع الغيب،

ويصهر جسمه الذي أخذ على النعومة في بوتقة الشقاء الجسماني والرياضة الروحية.

تجلي الوحي لبوذا:

ويروى أنه بينما كان (جوتاما) جالسًا في ليلة من الليالي تحت ظل شجرة تين، تجلى له النور وانكشف عنه الغطاء، وعرف كثيرًا من الأسرار، وبذلك أطلق عليه لقب (بوذا)؛ أي العالم المستنير. وعاد إلى الناس بعد أن قضى ست عشرة سنة يسرح بالفكر ويتأمل في الكون وفي الملكوت، عاد بمذهبه وبدأ ينشر دعوته ومبادئه على الشعب، وتبعه أتباع كثيرون آمنوا بمذهبه ومبادئه، وظل أتباعه وتلاميذه متمسكين بدعوته حتى مات في الثمانين من عمره وأُحرق جسده.

عقائد الديانة البوذية:

الديانة البوذية لا تشير إلى إله خالق سوى (النرفانا)؛ والنرفانا معناها الإطلاق الطبيعي، أو المتسامي، أو بوذا نفسه. ولم تتكلم عن إله صراحة بخلاف الديانة البرهمية التي تقول أن هناك إله، بل بوحدة ذلك الإله.

والذي لا يمكن إنكاره أن بوذا نفسه لم يدعِ يومًا أنه إله، أو ابن إله، أو ابن آلهة، ولكن مبالغة أتباعه هي التي جعلت من بوذا إلهًا، ومن مذهبه الفلسفي والإصلاحي دينًا، وهذه المبالغة قادتهم إلى الشرك والكفر، وذلك ظاهر في عبادتهم لبعض الحيوانات وتقديسهم إياها، والتغني بمجدها،

واستجلاب مددها، وتحريم ذبحها تحريمًا أساسًا، والسجود لها في كل لحظة. وقد نشرت الصحف العالمية أنباء المذابح التي كانت تحدث نتيجة ذبح هذه الحيوانات.

تعاليم الديانة البوذية:

وتتلخص التعاليم البوذية الظاهرة للكهنة، والخفية عن الأتباع إلا التلاميذ المشتركين في الأسرار فيما يأتي:

١- لا فرق بين جسم الأمير وجسم المتسول الفقير، إذن لا فرق بين روحيهما، فكل منهما مستعد لإدراك الحقيقة والانتفاع بها.
٢- يدعو بوذا إلى سلوك العمر الأوسط بين التلذذ والزهد الخالص في الدنيا.
٣- للعمر الأوسط ثماني شعب هي: النظر الصحيح، واللفظ الصحيح، والإلهام الصحيح، والتفكير الصحيح، والسير الصحيح، والحياة الصحيحة، والجهد الصحيح، والسرور الصحيح.

ويضع بوذا للحقيقة أركانًا أربعة هي:

١- الرغبة غير المدركة تؤلم.
٢- الشهوة أصل الألم.
٣- لاستقبال الألم يجب نبذ الرغبة.

٤- لأجل منع الألم يقتضي اتباع الممر الأوسط.

ولا يوجد في تعاليم بوذا شيء عن الله، أو عن تقديم ذبائح، أو قرابين، أو شعائر تعبدية؛ فقد اهتم بنشر المحبة والإشارة إلى الألم. ومن أهم معتقداته: أنه لا يسلم بفكرة الخلود في الوقت الذي يقول بمذهب التقمص، ويؤمن أتباع بوذا بما يسمونه (كرما): أن الرغبة تنتقل في الحياة الأخرى من شخص لآخر. كما كان بوذا يلقي بتعاليمه شفاهًا، مع أن الكتابة كانت معروفة، وقد جمع تلاميذه أقواله من أفواه المتحدثين، والرواة، والمؤرخين، وكتبت كلها بلغة (بالي)، لأن اللغة السنسكريتية كانت قد انقرضت، واتخذ التلاميذ الأتباع هذه الروايات المنقولة كتبًا دينية، لها القداسة والحرمة المعطاة لكتب الفيدا عند البراهمة، حتى أن الفيدا بأسفارها لم تعد لها عند أتباع بوذا أي مرتبة من السمو الروحي.

قواعد الديانة البوذية:

وتقوم الديانة البوذية على دعائم تعتبر القواعد الأساسية للديانة، والأركان التي تعتبر خطوطًا عريضة يتخذ منها التفسيرات والشروح، بحيث لا تخرج تلك الشروح والتفاسير عن هذه الدعائم، والدعائم الأساسية هي:

١- الألم من لوازم الوجود.
٢- الرجوع إلى هذه الدنيا مرة أخرى سببه اتباع الشهوات والنقائص في الحياة السابقة (عقيدة التناسخ).

٣- الخلاص من الشرور والنقائص هو الوسيلة الوحيدة للنجاة من العودة للأرض في تقمص جديد بعد الموت.

٤- التخلص من العقبات التي توقف حركة الخلاص من الشهوات.

٥- التسامح والطيبة، والشفقة، والحب، ولين الجانب، والإقلاع عن الرغبات الباهظة، والإضراب عن الضروريات الهامة، وأشدها درجات الزهد في الحياة نفسها متى كانت مبذولة في سبيل تخليص الغير.

٦- الإغراق في الانكماش والترهب.

وبهذه القواعد والأسس يمكن للإنسان المطبق لها تطبيقًا صحيحًا أن يصل إلى (النرفانا)، والنرفانا في عرف البوذيين عبارة عن بلوغ النفس الكمال الأسمى، وانطلاقها من أسر المادة، واجتماعها الأدبي بالنرفانا، وهي الكمال المطلق الغير محدود، أو الذي لا يمكن وصفه إلا لمن انكشفت له الأسرارو وكشف عن بصيرته الحجاب فتراءى له بوذا نفسه، ومعنى ذلك أن يفنى المؤمن في الروحانية البوذية المطلقة الكاملة.

ومع ما نرى فيه من بعض المبالغة، إلا أننا نقول أن الديانة البوذية تدعو إلى المحبة، وما نراه من انحرافها الفلسفي الذي لا يتفق مع العقل أحيانًا فنقول: أنه خير من النظم والقوانين التي يسير عليها أتباع بوذا اليوم، وما ابتدعوه من الشرك والوثنية، والخضوع للنواميس الكهنوتية، وألعاب السحر والشعوذة التي جعلها الأتباع من أهم أسرار الديانة البوذية.

الفصل الثالث

الديانة المصرية القديمة

اكتشف العلماء في القرن التاسع عشر الميلادي حقيقة المصريين، ودينهم، وشرائعهم، ومدنيتهم، وتقاليدهم، وعاداتهم وآدابهم؛ وذلك بفضل ما عثروا عليه من الوثائق التاريخية التي وجدت مكتوبة على أوراق البردي، ومن الكتابات والنقوش التي وجدت على واجهات المعابد، والهياكل، والقبور، والمسلات، والأعمدة، وأغطية التوابيت، وداخل تلك التوابيت.

وما جاء في مذكرات العالم الأثري مانيتون يؤكد أن هناك أنبياء ورسلاً أرسلوا إلى مصر، وأن الأنبياء الذين بشروا برسالات الله في مصر، هم الذين دعوا الناس في الهند وفي قارة آسيا إلى عبادة الله وتوحيده وعدم الإشراك به، ولكنهم يقولون أن الدعوة في مصر سبقت الدعوة في الهند، وأن نبى المصريين هو إدريس عليه السلام، وأنه هو الذي انتقل إلى الهند فبشر برسالته.

إدريس عليه السلام:

وما جاء في كتب المؤرخين عن إدريس عليه السلام، يروي أنه ولد بمدينة (أدفو)، حيث هبط أهله الذين كانوا يسكنون بسابل ثم رحلوا إلى مصر، وأنه كان يسمى (جوروس). وقيل أن إدريس هو (خانوخ) باللغة العبرية الذي أطلق عليه باللغة العربية (أخنوخ)، وسمي في اللغة الهيروغليفية (خوروس)، أو (هوروس)، وعرف في اللغة اليونانية باسم (هرماكيس)، ثم عرف باسم (هرمس)، وسماه البطالسة فيما بعد (أغثاذي مون) المصري، وسمي في الكتب المنزلة (إدريس). ونسبه هو إدريس مهائيل بن قينان بن آنوس بن شيث ابن آدم عليهم السلام، وقد ذكر المؤرخون أن مدة حياته كانت اثنين وثمانين سنة، عاش خلالها. كما دعا إلى الزهدو والمحبة، والعدل، والإحسان، وكان قربانه البقول والذبائح. وأنه أول من عرف العلوم الكونية، والجيولوجيا، والرياضيات، وكثيرًا من لغات أهل الأرض، حتى قيل عنه أنه كان يملك من الأسرار والمواهب التي كانت تؤهله لأن يكون الداعي المجاب، حيث كان يحدّث كل قوم بلغاتهم ولهجاتهم، مما جعل الناس تأنس إليه وتلتف حوله.

تعاليم إدريس عليه السلام:

وقد عرفت تعاليم إدريس عليه السلام من الآثار التي اكتشفت، وأخصها خاتمه الذي كان يتمنطق به. ومن أقواله التي وجدت مكتوبة على ورق البردي الذي سرقه الأجانب ووزعوه على المتاحف ودور الآثار في

أوروبا، فقد وجد مكتوبًا على خاتمه: (الصبر والإيمان بالله يرثان الظفر). كما وجد على حزامه حكم بالغة ودروس قيمة منها: (حفظ فروض الشريعة من تمام الدين، وتمام الدين من كمال المروءة، والمروءة خاصة من خواص الإنسان المتقي). وقد عثر ضمن آثاره على فراش كان يصلي عليه مصنوع من الحصير، وكان مكتوبًا على ذلك الفراش: (السعيد من نظر نفسه في مرآة صلاته وعبادته). كما كان من أقواله المأثورة: (حياة النفس في الحكمة، وموتها في الجهل).

عقائد المصريين قبل الكهنة:

كانت عقائد المصريين بادئ ذي بدء: هي العقائد التوحيدية التي دعا إليها نبي الله إدريس عليه السلام، وعرفوا أن الله واحد لا شريك له في الذات والصفات، كما كانت عبادتهم خالصة تتمثل في الرهبة، والاحترام، والخوف، والطاعة. يؤمنون أن الله قديم أزلي خالق، لا بداية له ولا نهاية، يَفني ولا يُفنى، كل شيء زائل وهو باقٍ، وعرفوه باسم آتون، وجعلوا لهذا الاسم معنيين: أحدهما ظاهر، والآخر خفي، كما أعطوا الاسم الظاهر معنًا: أنه إذا ظهر بمثالِه النوراني (الشمس)، سمى آمون، وأما الاسم الخفي: فهو الذي قام به كل الوجود، يوهب العطايا، ويعطي ويأخذ، وبذلك سمي (رع)، ومن هنا كان اسما (آمون– رع).

وقد جاء في مؤلَّف للعلامة (ماسبيرو) –وهو أستاذ فرنسي–: (وكان إله المصريين الأول عالما بصيرًا يُدرِك ولا يُدرَك، موجودًا بنفسه، حيًا بنفسه، حاكمًا بنفسه، حاكمًا في الأرض والسماوات؛ فهو أب الآباء، وأم

الأمهات، لا يفنى ولا يغيب، يملأ الدنيا وليس له شبيه ولا حد، ويوجد في كل مكان). وقد وجد أيضًا في هيكل إيزيس بصان الحجر نقش قديم يتضمن كلمات منسوبة للإله جاء فيها: (أنا كل شيء كان، وكل شيء كائن، وكل شيء سيكون، ومحال على من يَفنى أن يزيل النقاب الذي تنقّب به وجه من لا يُفنى).

وقد كان قدماء المصريين في أناشيدهم يترنمون باسم إله واحد، وينشدون للخالق المصور الذي له الأسماء الحسنى، الذي خلق للإنسان عينين، وهداه النجدين، ووهب له أذنين ليسمع بهما أناشيد ذلك الإله الذي استطاع الإنسان أن يبصر قدرته، معترفًا بأنه مولاه ولا مولى له إلا الله، وقد ورد في بعض الأناشيد والأدعية الواردة في كتب قدماء المصريين: (يا مولاي ويا سيدي، إنك خلقتني وصورتني، وجعلت لى عينًا أبصر بها آثار قدرتك، وآذانًا أسمع بها أناشيد تقديسك).

دور الكهنة وانحراف الديانة المصرية:

وبنفس الطريقة التي انحدرت بها الديانة البرهمية، وفي نفس الطريق الذي سار فيه الكهنة البراهمة، وبنفس الأسلوب انحرف الكهنة المصريون واتخذوا من صفات الله ثالوثًا، وكما اتخذ البراهمة الثالوث (برهما، وفيشنو، وسيفا)، اتخذ المصريون من صفات الله وهي (الوجود، والحكمة، والحياة) الثالوث (آتون، ورع، وآمون).

وما زال المصريون يستحدثون على مر السنين أسماءً وآلهة، حتى صار الثالوث تاسوعًا غير آلهة ثانوية منسوبة إلى هذا التاسوع. وظلت الديانة

المصرية تتطور وتنحرف حتى وصلت إلى عبادة النار، والنجوم، والكواكب، وما إلى ذلك من الظواهر الطبيعية التي تاه في عرفها وكنهها المصريون. وإن كانت عبادة الظواهر الطبيعية حفزت عبادها على أن يكتشفوا أسرارها مما خدم العلم والعلماء، وكشف كثيرًا من الأسرار التي أصبحت فيما بعد من الركائز الثابتة والقواعد الأساسية في علوم الفلك، والجيولوجيا، والرياضيات.

وإذا كان المصري القديم قد انحرف في عبادته تحت تأثير التعاليم المبتدعة، وأهم تلك التعاليم تعدد الآلهة، وخير دليل هو التاسوع المصري الذي أشرنا إليه؛ والتاسوع عبارة عن الثالوث الأول (آتون، ورع، وآمون)، واشتق منه الثالوث الثاني (تيت– نوت– شو)، ثم جاء الثالوث الأخير من التاسوع (إيزيس، وأوزوريس، وسيت)، ثم كانت هناك آلهة ثانوية نذكر منها ثمانية هي: (هاتور، أو هنريت، ونيسير تشر، وبوناشيت، وتنجيت، وتوتو، ومعت، وبتاح، ونيفون). وإليك التاسوع المصري وصفة كل إله ووظيفته.

١– آتوم آو آتون: الإله الخفي الذي لا يظهر إلا بصفاته وهو نور الأنوار.
٢– رع: الذي تشخّص فيه النور فصار عطاء وخلقًا (الخلق والرزق).
٣– آمون: ظهور القدرة المشرقة في الشمس؛ وهو مظهر رع الذي يوصل عطاءه إلى المخلوقات، وفي النهاية صار تمثالاً لطيبة.
٤– نيت: الأثير العام.

٥- نون: السماء بأفلاكها وكواكبها والهيولة العامة.

٦- شو: الجو أو الموجات الكهربائية الموجبة، ويشتق منه الإله (تفنوت): وهي الموجات السالبة، وهذا يعطى نفس معنى فشنو عند البراهمية.

٧- إيزيس: بمعنى الحياة، أو الروح.

٨- أوزوريس: بمعنى النماء والازدهار، وهذا الإله هو الذي سيحاسب الموتى.

٩- سيت: المدمر، أو الفناء.

وأما عن الآلهة الثمانية الثانوية، فنذكرها مع صفاتها ووظيفتها:

١- هاتور، أو هتريت: إله الطبيعة.

٢- تيسير تشر: إله النظام والقوانين.

٣- يوتاشيت: إله الفيض الشمس.

٤- تحييت: إله الأطياف الانعكاسية.

٥- شوت: إله العلم في معناه العلم.

٦- معت: إله الحكمة.

٧- بتاح: إله القدر.

٨- تيفون: إله الشر.

وكانت صلاة المصريين الذين انحرفوا، موجهة إلى التاسوع المصر، وكانت دعواتهم وأناشيدهم تنادي قوى الطبيعة على أنها آلهة، وقد كانت تلك الصلوات تصدر منهم تقربًا للتماثيل الرمزية التي أقيمت لآتون، ورع، وآمون في

طيبة من أهم ظواهر الشرك والوثنية، حيث ظن المصريون المتأخرون الذين أعقبوا حكم الكهنة: أن تلك التماثيل الرمزية آلهة مختلفة فعبدوها، وتعددت الآلهة وصارت المدن مليئة بتلك الآلهة، وكانت لكل مدينة آلهتها التي تقدسها دون الآلهة الأخرى، فقد كان موطن (أزوريس) في أبيدوس، و(بتاح) في منفيس، و(آمون) في طيبة، و(هوروس) في أدفو، و(هاتور) في دندرة، وكانت مدينة طيبة دون سائر المدن مملوءة بالمعابد والتماثيل، حتى قام إخناتون بثورته المشهورة لتوحيد الإلهة وعبادة إله واحد بعد الآلهة المتعددة، والتي كاد أن يكتب لها النصر، لولا؟

وهكذا ظلت الديانة المصرية تتنقل من طور إلى طور آخر تنازليًا، فتطورت من عبادة إله واحد، ثم عبادة آلهة ثلاثة، ثم آلهة تسعة، ثم تطور التاسوع إلى ضعف عدده، ثم ظل عدد الآلهة يأخذ في الازدياد حتى بلغ ما يقرب من المائة؛ بين اسم لفلك، وصفة لكوكب، وعظمة لظاهرة طبيعية، وتقديس لطير أو حيوان. وكثيرًا ما كانت بعض المدن تعهد ملوكها على أنها آلهة، وكانوا يقيمون لهم الصلوات، ويقدمون لهم القرابين، ويرفعون إليهم البخور. وظل المصريون على حالتهم من الوثنية والشرك حتى هاجم الفرس واليونان مصر وأغاروا عليها، فهدموا المعابد، وخربوا الهياكل، وحطموا التماثيل، وحاربوا الكهنة أينما كانوا. وعندما افتتح الرومان مصر هدموا بقية الهياكل، وأزالوا كثيرًا من المعابد، وأبطلوا كثيرًا من العبادة، وكانت الخاتمة أن أمر الامبراطور (تيودور) الروماني بإبطال الديانة المصرية القديمة، واعتبار النصرانية دينًا لمصر.

الفصل الرابع

الديانة الصينية والكنفوشيوسة

قديمًا قال الصينيون أن إله السماء كائن عظيم محب للخير، ويكره الشر ويجازى الناس بأعمالهم، كما أنهم كانوا لا يؤمنون بوجود أي قوى خبيثة في هذا العالم، ثم جاء طور التغيير الفكري تحت إيحاء التخريج والتغيير، وبمرور الأيام وتداول الأعوام، تغيرت الأفكار، فأضافوا إلى هذا الإله الواحد كثيرًا من مظاهر الطبيعة، كالشمس والقمر والكواكب والنجوم والأرض، وما عليها من جبال وتلال، وما يجرى فيها من بحار وأنهار. ثم تطورت معتقداتهم، فاعتقدوا بوجود كائنات روحية تسكن البيوت، وأن تلك الأرواح لها قدرة على النفع والضرر، فقدموا لها القرابين، كما كانوا يعبدون أرواح أسلافهم، وتحول الإله العظيم الواحد إلى آلهة متعددة.

كنفوشيوس:

ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد في مقاطعة (لو) من أعمال ولاية شانتنج، وكان منذ صباه مغرمًا بتقليد الكهنة في تقديم القرابين، وإقامة الشعائر الدينية، ولما كبر أثر في حياته ما شب عليه في صغره؛ فقد تولى أعمالاً كثيرة في الحكومة، ثم عمل مدرسًا، ومن وحي التدريس وحبه للإلقاء

والتلقين نشأ عنده التفكير والتأمل، وخرج على الناس بمذهبه الذي ضمنه تعاليمه وآراءه، ووضع له الأسس والمبادئ التي دان لها واعتقدها وآمن بها كثير من أهل الصين. وقد عمل على نشر مذهبه بكل ما أوتي من جهد، ووسائل، وإمكانيات، فقد كان ينتقل من ولاية إلى ولاية يبشر بهذا المذهب حتى مات في سن الثالثة والسبعين.

مذهب كنفوشيوس:

وجد كنفوشيوس قومه غارقين في بحر من الأوهام، عاكفين على التفكير في عالم الأرواح، والتأمل في ذات الإله، مضيعين الوقت في البحث عن صفات الملائكة والجند، منقبين عن الحياة المقبلة بعد الموت، جل همهم تقديم القرابين وإقامة الشعائر الدينية لإرضاء أرواح أسلافهم، باحثين عما يرضي قوى الطبيعة عنهم؛ فالسماء لا تمطر لأن إلهها غاضب، والكواكب لا تظهر لأنها غير راضية، والشمس في كسوف لأن أهل الأرض عصاة، وبهذا انصرفوا عن الحياة انصرافًا تامًا، وأصبح الشعب متكاسلاً غاية التكاسل، مما نتج عنه وقوف عجلة الحياة، وخيم الجهل بالواجب والحق على الناس؛ فكسدت التجارة، وتوقفت الأعمال العامة والخاصة، حتى أصبحت الحياة في الصين أشبه ما تكون أشباحًا بلا روح تسيرها أو تدفعها.

فخرج عليهم كنفوشيوس بمذهبه، فدعا إلى معرفة كل إنسان ما عليه من واجبات، وما له من حقوق، وبيّن ماهية الفرد في المجتمع، وواجبه نحو

مجتمعه، وحقه في ذلك المجتمع. فرق بين العبادة والعمل، وجعل لإصلاح المجتمع أسسًا، منها: إصلاح الفرد هو إصلاح الأسرة، وصلاح الأسرة هو صلاح المجتمع. ودعا أهل الصين للعلم، كما بث فيهم روح الفضيلة والتآخي، والحب والطهر، والنقاء والصبر، والعزة والكرامة، والتزود من المعرفة، وكان يلقى دروسه على هيئة محاضرات كلامية، فلم يكتب حرفًا واحدًا، ولكن كان تلاميذه يجمعون ما يخرج مِن فِيه من حِكَم، وبذلك اعتبر أكبر حكماء الصين ومؤسس الديانة الصينية، وأجمع الصينيون على عبادته وتقديس تعاليمه وحكمه، وأصبحت الكتب التي تركها بعد موته والتي كتبت بخط تلاميذه كتبًا مقدسة، لها من القداسة ما لأي كتب سماوية، حتى اعتبرت فيما بعد دستورًا للدين، وهذه الكتب ثلاثة هي:

١- مختارات كنفوشيوس.
٢- تعاليم البالغين.
٣- الاعتدال.

عبادة الصينيين وعقائدهم:

مما تقدم يتبين لنا أن الصين كانت عبادتهم كلها تتلخص في أن يقيموا الشعائر ويقدموا القرابين للإله الأعظم، وأرواح أسلافهم، وقوى الطبيعة المختلفة، وهذا كان له أثره في إقامة المعابد والهياكل، فقد كانت تُبنى المعابد في الصين على هيئة هيكل عظيم بداخله هياكل ثلاثة ترمز إلى مذابح ثلاثة، لكل معبود هيكل:

١- مذبح الكواكب والأفلاك السماوية والأرضية؛ وهذا تقدم فيه القرابين للشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، والأرض، والتلال، والجبال، والأنهار، وما إلى ذلك من قوى الطبيعة.

٢- مذبح الأرواح؛ حيث كانوا يعتقدون أن أرواح آبائهم وأجدادهم وملوكهم تهديهم في تلك الحياة، وتقف معهم وقت الشدة والرخاء، فكانوا يقدمون القرابين لها في هذا المذبح زيادة في إرضائها، وليستهدونها في أمورهم الحاضرة والمقبلة، ويطلبون منها السعادة في حياتهم.

٣- مذبح الإله الأعظم: وهو خاص بعظيم السماء، وهذا المذبح أقدم المذابح وأعظمها وأكبرها، لا تجد حوله أصنامًا، أو تماثي،. أو دمى لأنه مذبح الإله الغير منظور.

ويعتقد الصينيون في عظيم السماء، أو الإله الغير منظور، أنه الرب العظيم ومالك الأكوان ذو الفضل غير المتناهي، ليس له مكان أو زمان، موجود في كل الوجود، أينما توجه الإنسان فهو معه، حاضر لا يغيب، الإله الذي لا يحابي، بل يجود بلطفه ورعايته على الإنسان الفاضل، ويحب استعمال الرأفة والرحمة، وأنه يعتني بالأرض، وحضوره فيها دائم وإن كان غير منظور، وقد سموه (بي سز)، أو (تي ين)، ثم تطورت التسمية إلى (شانج تي).

وأعتقد أنه ليس بمستغرب على القارئ أن يعرف من وحي ما تقدم عن المذابح الثلاثة، أنه ولابد أن يكون هناك ثالوث إلهي على غرار

الثالوث الهندى (برهما- فشنو- سفا)، فقد تحولت العبادة من كونها لإله السماء (الإله الغير منظور)، إلى أن أصبحت لثالوث وضعه فيلسوف صيني يدعى (فوفي).

الثالوث الصينى:

١- تي ين، أو الإله المجهول غير المنظور.
٢- تشانج (أرواح الآباء، والحكماء، والملوك).
٣- ني سز (الشمس والكواكب السيارة).

وكان المذبحان الأول والثاني المخصصين لعبادة الأقنومين الأولين من الثالوث تقام حولها الأصنام والتماثيل التي ترمز إلى صورة الآباء، والحكماء، والملوك. كما كانت تقام التماثيل التي ترمز إلى قوى الطبيعة، ومن ذلك أصبح الصينيون يعبدون الأصنام.

ومن الصين انتقلت هذه المبادئ إلى اليابان، حتى أصبحت العائلة المالكة في اليابان آلهة، وأعظم الآلهة الإمبراطور.

الفصل الخامس

الديانة الكلدانية

كانت ديانة الكلدانيين ديانة مستوردة من الدول المجاورة، حيث كان الكلدانيون حلقة الاتصال بين مصر، والفرس، وفينيقيا، واليونان. وقد اتخذوا عن المصريين عبادة الشمس وسائر النجوم، والكلدانيون هم معلمو الوثنية الحقيقية في الشرق، وقد برعوا في علم الفلك، والسحر، والشعوذة.

آلهة الكلدانيين:

جعل الكلدانيون لكل واحد من الكواكب السيارة صنمًا، وأكبر الأصنام الذي كان يرمز إلى الشمس؛ وهو المعتبر في عرفهم أهم الآلهة وأكبر أصنامهم، ويمكن الإشارة إلى بعض آلهتهم:

١- بعل، أو آمون إله الشمس.

٢- عشتروت، أو إيزيس إله الجمال.

٣- هوروس، أو تموز إله الخصب والنماء، ويقام له عيد في شهر تموز (يوليو) من كل عام، وهذه الآلهة هي التي حطمها ابراهيم عليه السلام، وقصته معها معروفة ومشهورة.

الديانة الفارسية (المجوسية)

عبد الفرس أول أمرهم قوى الطبيعة، وخصوصًا ذلك المخلوق العظيم (الشمس)، الذي تجلى عليهم حتى رأوه في السماء، وأثبتوا له كثيرًا من أوصاف الألوهية؛ فقالوا: (أنه عالم بكل شيء، وأنه غير محض، وأنه أعظم الموجودات، وأنه نوراني يشرق على العالم بنوره، وكان له كثير من الأعوان والشركاء، وهم: الصديق وهو الضوء، وستة من الملائكة المقربين الذين يحملون العرش، وآلاف من الموجودات التي تتمثل في مظاهر الطبيعة).

ثم تطورت عبادتهم إلى عبادة إلهين أحدهما يسمى (مزدا) أو (أهور مزدا): وهو إله الخير العالم بكل شيء، والإله الثاني ويسمى (أهريمان): وهو إله الشر، ثم تطورت العبادة إلى مجوسية مطلقة.

عقائد المجوسية:

قسم المجوس أو الفرس العوامل المؤثرة في تلك الحياة إلى قسمين: هما الخير والشر. فالنور عندهم رمز لإله الخير (أهور مزدا) عاش زمنا طويلاً ثم ظهر (أهريمان) إله الشر، وإن سبب وجود إله الشر أن إله الخير هو الذي طلب قوة مضادة لكي تظهر قوته فقدموا؛ لإله الخير القرابين، ثم تطورت العبادة من عبادة النور إلى عبادة النار.

القارئ لأشعار هومير، وهزيود المترجمة إلى سائر اللغات الحية يخرج منها بطبيعة آلهة اليونانين.

عقائد اليونانيين:

كان اليونانيون يؤمنون أن آلهتهم يأكلون، ويشربون، ويلعبون، ويلهون، ويخوضون المعارك فيغلِبون ويغلَبون، ويتألمون ويفرحون، ويحزنون ويتباغضون ويتحاسدون، فيحقدون، والويل لمن تعرض لهم أو أغضبهم فإن غضبهم شديد؛ ولذلك حكم على سقراط أن يشرب السم، ومات شهيد الجهر بالحقيقة، لأنه أفشى أسرار الوحدانية وخلود الروح، واعتبروه كافرًا بالآلهة.

حكماء اليونان وفلاسفتهم:

وقد ظهر في اليونان حكماء، لكل منهم مدرسة خاصة، أودعها فلسفة أمثال طاليس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون. وقد ذهب هؤلاء الفلاسفة شأوًا بعيدًا في استطلاع الحقيقة، ولكنهم اختلفوا في المشارب: منهم من تأثر بعلوم الكهنة، ومنهم من كاد أن يجهر بالحقيقة التي كانت تلح في الخروج إلى عالم الظهور لولا خوف الحكماء من أن يكون مصيرهم مصير سقراط.

الديانة الرومانية

انتقلت الديانة اليونانية إلى الرومان، إلا أن مدارس الديانة الرومانية بنيت على الأخلاق، وإن كان اليونانيون قد ألهوا الأخلاق والفضائل، إلا أن الديانة الرومانية تغالت في هذا الشأن. فقد كانت الديانة الرومانية لا تعرف إلهًا معينًا، ولم تعترف بوجود إله أو آلهة، إنما كان جل همهم أن يلقنوا أبناءهم الأخلاق والفضائل منذ نعومة أظفارهم، ويمكن أن يقال أن فلسفة الديانة الرومانية وليدة الفلسفة اليونانية.

الفصل السادس

(أ) الديانة الإسرائيلية

موسى:

هو نبي الله الذي أرسله بعد أن تربى في بيت فرعون إلى بني إسرائيل ليخرجهم وينقذهم من ظلم فرعون ومَلئه، ومجمل قصته أن أمه ألقته في أليم ولكن الله نجاه بأن أخذته امرأة فرعون، ثم بعد أن كبر قتل مصريًا انتصارًا لرجل من قومه بنى إسرائيل، وشاع الخبر وأراد فرعون قتله، فهرب موسى وسكن أرض مدين وتزج ابنة شعيب بن صفوره بعد قصة استسقاء لها ولأختها، وبعد أن قضى أجلاً وخرج بأهله ظهرت له نار من شجرة تشتغل، وخاطبه الله وأمره أن يذهب إلى فرعون وأن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر.

الله:

تقول التوراة في أسفارها: أن موسي عندما رأى النار ظهر له ملاك، وسأل موسي الملاك عن اسم الله، فقال له الملاك أن اسم الله هو (يهوه)

إله إسماعيل، وإسحق، ويعقوب. ومن أسمائه (آهيا)، و(أُلوهيم)، وكل هذه الأسماء تعطي معنى وصفات (الله– القادر الكافي).

الوصايا العشر:

وبعد أن خرج موسى بقومه، ذهب لمناجاة ربه، وآتاه الله الكمات العشر؛ وهي أول التوراة، وتتلخص فيما يأتي:

١- أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.
٢- لا تضع لك تمثالاً منحوتًا، ولا صورة مما في السماء من فوق، ومما في الأرض من تحت، ومما في الماء تحت الأرض، ولا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضي، واصنع إحسانًا إلى الآلاف من محبي وحافظي وصاياي.
٣- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً.
٤- اذكر يوم السبت –ومعنى السبت الراحة– لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما يوم السبت ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملاً ما أنت، وابنك، وعبدك، وأمتك، وبهيمتك، ونزيلك الذي داخل أبوابك.

٥- اكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض حتى يعطيك الرب إلهك أبناء بررة.

٦- لا تقتل.

٧- لا تزن.

٨- لا تسرق.

٩- لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠- لا تشته بنت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره.

شريعة موسى:

وقد دونت شريعة موسى الأصلية في (التوراة)؛ وهي عبارة عن أسفار دونها الأحبار والكهنة بعد موسى، فمنها من ناله التحريف، والتبديل، والتغيير، ومنها من ضاع أثناء التيه، ولكنهم قسموا التوراة إلى أسفار مقدسة نسبوها إلى الله، وأسفار نسبوها إلى الأحبار والعلماء.

الأسفار:

١- سفر التكوين: ويحوي تاريخ الخليقة، وقصص الأنبياء من آدم وخروجه من الجنة إلى إسحق عليه السلام، وإشارة إلى يعقوب ويوسف.

٢- سفر الخروج: ويقص التاريخ ابتداءً من موت يوسف إلى خروج بنى إسرائيل من مصر ونزول الوصايا العشرة.

٣- سفر اللاوين: وهو النظام التشريعي، وبه تفصيل عن تقديم الذبائح، والمحرقات، والقرابين، ورسم الكهنة.

٤- سفر العدد: يحوي عدد بني إسرائيل، وأنسابهم، وشجرة القبائل الإسرائيلية. كما يروي قصة التيه في الصحراء إلى أن وصلوا إلى أرض موآب، ثم أرض الميعاد.

٥- سفر التثنية: ويحوي كلمات موسى الأخيرة، وخبر وفاته، ووصيته.

وهذه هي الأسفار الخمسة التي نسبوها إلى موسى عليه السلام، أما باقي الأسفار فهي: (يشوع، والقضاة، وراعوث، وصموئيل الأول والثاني، وأخبار الأيام الأول والثاني، وعزرا، ونحميا، وأستير، وأيوب، والمزامير، والأمثال، والجامعة، ونشيد الإنشاد، وأشعياء، وأرمياء، ومرائي أرمياء، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبيديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصنفيا، وحجي، وزكريا، وملاخي، (وهذه الأسفار وعددها أربعة وثلاثون سفرًا، وكلها بين نشيد وترتيل، والأسفار كلها قد بينت تاريخ ضلال بني إسرائيل وخروجهم من شريعة موسى).

ب- اليهودية:

تغلبت المادة على الروحية عند بنى إسرائيل، ثم مرت بهم أطوار تعرضوا فيها لنقمة الله جزاء خروجهم عن شريعته حتى انقرضوا، وبقى قوم نسبوا إلى إسرائيل عفوًا، وهم ليسوا أصلاً منهم، بل هم قوم تَهَوَّدوا، ثم

أصبح الدين قضايا كلامية، وآراء فلسفية؛ فتركوا الأصل وتمسكوا بالفروع وأولوها كما تشتهي أنفسهم. واختلطوا بغيرهم من الأمم واخذوا عنها كثيرًا من العلوم والآداب، واكتسبوا طرقًا جديدة للتفكير، وعبدوا آلهة متعددة: مثل آلهة الآراميين، والكلدانيين، والموابيين أمثال البعل، والبعليم، والعشتاروث.

ترتب على هذه النزعات انقسام اليهود ممثلين في أحبارهم، وعلمائهم إلى قسمين: هما الفريسيون الذين يقال عنهم الربانيون، والصديقيوم وهم المشهورون باسم (اشكنازي). وكل من القسمين له رأي.

رأى الفريسيين: تمسك الفرنسيون بحفظ الشرائع والتنفيذ الحرفي للأصول، وتشددوا في التنفيذ وتمسكوا بالتقاليد، وأخذوا في تفسير الكتب المقدسة مأخذ السلف الصالح، كما اعتقدوا أن حرية اليهود وكيانهم لا يحفظ إلا بالتمسك بالشريعة، وأن عظمتهم لا تسترد إلا بالدين.

رأى الصديقييم: وأما الصديقيوم فكانوا يقولون أن الله خلق الإنسان كفئًا ليتولى إدارة شئون نفسه بنفسه، وأن من العبث انتظار إرادة الله في حين أن الإنسان خلق مختارًا، ويجب أن يحل مشاكله بنفسه، ولا يعرفون شريعة ولا يتمسكون بسنة، ولا يعترفون بتقاليد أو عادات. كما يقولن أن آثار موسى ليس فيها ما يؤيد التمسك بالشريعة، وبذلك ينافون الحقيقة في قولهم.

التلمود: كان من نتيجة الخلاف الدينى وتغلب المادة على الروح أن استحدث اليهود كتابًا مقدسًا يختلف عن التوراة سموه باسم التلمود؛ ومعناه المفسر. وأطلقوا على بعضه الآخر اسم (المثناه)، أي الثاني، ويتكون من ستة أسفار تعتبر قاموسًا في الزراعة، والأعياد، والزواج، والدية، والذبائح، والقرابين، والطهارة. وقد جمع التلمود من أصلين: أحدهما يسمى الأورشليمي؛ وهو ما كتب في أورشليم، والآخر كتب في نابلس وسمي النابلسي، والأول أقدم من الثاني. وظل الخلاف خفيفًا وخفيًا حتى آخر عهد سليمان، وفي أول حكم رحبعام بن سليمان احتدم الخلاف، وانقسم اليهود إلى مملكتين: هما يهوذا، وإسرائيل.

الدولتان:

تنقسم الدولتان إلى دولة يهوذا: وهي المؤلفة من سبطي يهوذا وبنيامين. والثانية دولة إسرائيل: وهي التي تتألف من باقي أسباط بني إسرائيل العشرة. وظلت الدولتان تتنافران وتتقاتلان حتى قضت دولة يهوذا على دولة إسرائيل، وعاشت بعدها حوالي خمسمائة سنة. [1]

أقسام اليهود الفقهية:

وكما انقسم اليهود إلى قسمين وهما الفريسيون والصديقيوم، فلابد من الرجوع إلى أصل التسمية، فبعض الفرق سميت بالصديقييم؛ وذلك

([1]) انظر كتاب المؤلف (اليهود من الكتب المقدسة).

لتمسكهم بالنصوص، وتفسيرها حسب هواهم، ومن هذه الفرقة تناسل السامريون والصديقيوم.

والفرقة الثانية أضافت إلى معتقدها تقاليد المشايخ لما يظن فيهم من قداسة، وتسمى (خاسويم)؛ أي الأتقياء، ومنها تناسل الفريسيون والأسينيون.

ثم انقسم اليهود إلى طوائف شتى وفرق متعددة، ولا يزال منهم في عصرنا هذا الربانيون، ويكونون السواد الأعظم من اليهود، وينقسمون إلى السافروديم (العرب)، والاسكنازيم (الأوروبيون). والربانيون يقدسون التوراة والتلمود معًا باعتبار أن التلمود موحى به.

كما يوجد في عصرنا الحالى فرقة (القرائين)، والقراؤون يعدون الربانين ضالين في معتقدهم، وهم لا يقدسون غير التوراة، ويفسرونها معتمدين على الأدلة الفعلية، وباب الاجتهاد مفتوح أمام كل يهودي، ولا يؤمن القراؤون بالتلمود إلا على سبيل أنه مجموعة من آراء المفكرين القدامى يجب اللجوء إليها في بعض الأحوال، لا في الأحوال كلها.

وهكذا يمكن أن نقول أن اليهود ضلوا سواء السبيل وخرجوا عن الجادة وانحرفوا عن أهدافهم التي جذبتهم عنها أهداف أخرى، فأقاموا الهياكل كما تقيم الأمم والشعوب الوثنية الهياكل لأربابها، وقدموا القرابين والذبائح كما كان يقدمها عباد الوثن، ثم زادوا في الإسفاف بالتوحيد حتى

جعلوا الأوثان في بيوتهم وسموها (الطرافين)، وعبدوا البعل وغيره ووضعوها في هيكل سليمان.

ومع التخويف وهزيم النذير بين يدي عذاب شديد، الذي ورد على لسان أنبيائهم المتعاقبين الذين كانوا دائمًا يوجهونهم إلى عبادة الإله الواحد رب الجنود، وأنه القوي المنتقم الجبار الغضوب. وأقوال أنبيائهم تصور لنا الحال التي صارت إليها عقيدة التوحيد والتنزيه إذا ما صارت إلى قوم امتلأت قلوبهم بالمنافع والحرص على الدنيا. فقد أصبحوا لا يبغون رضوان الله خالصًا لوجهه، ولا يعبدون الله مخلصين له الدين، لأنه لا يوجد في نفوسهم، أو عقولهم إلا المادة وما يتفرع منها.

الدين والشريعة في عرف اليهود عبارة عن تشريعات رسمت للمعاملات التي يمكن بها أن يستحلوا أموال غيرهم من الناس والأمم، وطقوس في العبادة هي أيضًا صور من شريعة المعاملات، وصيغ السندات، والديون، والمطالبات، وانتهاك الحرمات، واستعباد الشعوب، واستحلال المحرمات. وفي جملتها يمكن أن يقال أن عبادة اليهود إما للاعتداء، أو زيادة الرزق عن طريق السلب والنهب، وبذلك تجدهم قد انحرفوا عن دينهم، وآخر القول فيهم أنهم أصبحوا الأديليين.

الفصل السابع

(٢) المسيحية

(دين الطهر الوجداني)

لما كانت الديانة اليهودية قد تركت لليهود الحبل على الغارب، وتغلبت الماديات على عقولهم وغمرت قلوبهم، كان لابد من دين يخاطب الضمير ويتناجى مع الوجدان، ويناجي الروح ويتسلل إلى النفس، فيطهرها ويمحو ما ران عليها من زيف، ويزيل ما ألمّ بها من غشاوة؛ لذا كانت المسيحية خالية من المادة إلا شذرات أوحت بها الضرورة. فقد كان جل توجيهها لفت النظر إلى السماء، حيث لا تغني المجسمات المحسوسة عن الغبطة بالتأمل في ذلك الكمال الأبدي المطلق في الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى، حيث تجد النفس في هذا الاتجاه السعادة الكبرى والراحة التي لا يشوبها الملل، أو يعيبها القلق على المستقبل، بل يكون الإيمان بما هو آت وما مضى.

وبهذا كان طبيعيًا أن يطلب الإنسان طرق الهداية حسب فطرته وخلقته، التي فطر عليها ويستمع لنداء السماء: (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ). وتجعل تلك العبادة خالصة لوجه الله لا يشرك بها مال، وذلك حسب قول المسيح عليه السلام: (لا يجوز لرجل أن يخدم سيدين، إما أن يخدم الله أو يخدم المال)؛ ولذا كانت المسيحية لا تدعو إلى التوحيد

والتنزيه عن الشرك فحسب، بل صورت الله سبحانه على أنه المعشوق الأسمى الذي يتجه إليه وجدان كل حي، فيتلاشى من قلب الإنسان ما عمر به من طقوس وشعائر وثنية، ويتبدل قلبه إلى عامر بحب الله الذي لا يعبد سواه وهو القادر على تحريك القلب، فالقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يحركه كيف يشاء.

والمسيحية هي النصوص التي جاء بها السيد المسيح عليه السلام، ولا يخرج مضمونها عن ما جاء على لسانه في القرآن الكريم: (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وربَّكُمْ)، لا ما ألحق بكلامه من الفوارق وسيرته من التأويل. وبذلك تكون المسيحية هي دين الروح وخطاب القلب، ونداء الحس، بصرف النظر عن الفوارق الإقليمية والدولية، جاءت خالية من المراسم والطقوس، ومن علائق التجسيم والمادة التي تولد الرين على القلوب.

الله :

دعا المسيح عليه السلام إلى توحيد وتنزيه الله عن الشرك أو المشاركة، مثله في ذلك مثل باقي إخوانه من الأنبياء والرسل، وقد تبرأ من الذين قالوا عنه أنه الله أو ابن الله، وكان قوله لربه (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) خير حاسم للنزاع، وإن كان المتشدقون يتخذون من كلمة البنوة التي وردت مجازًا في بعض المواقف على أنه ابن الله فقد أخطأوا، حيث أن الكلمة كانت ترمز إلى جميع عباد الله المخلصين الذين أكنوا بوحدانية ربهم أنهم أبناء الله، وذلك حسبما جاء في أمر

المسيح القائل لهم يجب أن تصلوا هكذا (أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ولتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، اغفر لنا ذنوبنا... وفي هذا المقام يستطيع أن يقف كل مسيحي مؤمن ويناجي أباه الذي في السماء؛ أي ربه القدوس اسمه، والمنفذ لمشيئته في الأرض والسماء، غافر الذنب، قابل التوب شديد العقاب).

ويتضح لنا جليًا أن المسيح لم يكن إلهًا، أو لم يدعِ يومًا ما أنه إله؛ وذلك من مناقشته لأحد الفريسيين، عندما قال له الفريسي: (أيها المعلم الصالح، وهنا استدار المسيح إليه شبه مستنكر، وفي الوقت نفسه معلم مرشد: (كيف تدعوني صالحًا وليس أحد صالحًا إلا الله). ومن هذه النقطة تفهم أن الفريسي جاء يستدرج المسيح لأنه سمع من تلاميذه الذين يقولون عن المسيح أنه الله، فكان رده على المسيح عليه السلام مظهرًا لما يبطنه: (نعم يا معلم ليس أحد صالحًا إلا الله). وانتهت المناقشة بتأمين المسيح على كلام الفريسي حين قال له: (إنك لست بعيدًا عن ملكوت السماوات).

العقيدة في المسيحية الحقة: إن العقيدة في الدين الذي بشر به السيد المسيح تتجلى واضحة كل الوضوح فيما جاء في إنجيل يوحنا: (الله لم يره أحد قط). وتأكيد العقيدة التي جاءت بها المسيحية تُعلم المؤمنين أن من يؤمن بربه فهو حي، ومن لم يؤمن أو يشرك بربه أحدًا فهو ميت؛ لقول المسيح عليه السلام للمؤمن الذي جاء يستأذنه في ذفن أبيه الذي مات على غير الإيمان: (دع الموتى يدفنون موتاهم). وقد كان المسيح لا يقيم

للجسد وزنًا إلا بقدر بسيط على اعتبار أنه وعاء الروح، فقد كان يعلم تلاميذه قائلاً لهم: (لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، بل الحري أن تخافوا من الذين يقتلون الروح). وكان في تعاليمه يقلل من شأن الدنيا وما حوت، ويفضل الآخرة التي هي خير وأبقى حيث يقول: (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه).

(ب) المسيحية بعد المسيح

انحراف المسيحية: بعد وفاة المسيح عليه السلام بحوالي سبعين سنة –وهو تاريخ كتابة أول الأناجيل الأربعة (مرقص)– انبثقت عدة آراء خالف بعضها البعض، وكان محور الخلاف شخصية المسيح عليه السلام، وما حول تلك الشخصية من السمو الروحي، والسحر السماوي الإلهي الأخاذ، والنور الملكوتي الباهر.

فرأي يناقش شخصية المسيح على أساس طبيعة واحدة بمشيئتين، ورأي يناقش تلك الشخصية على أن المسيح طبيعة واحدة بمشيئة واحدة، ورأى ثالث يناقش شخصية المسيح على أنها طبيعتان ومشيئتان، ومن تلك الآراء المتباينة ظهرت في عالم المسيحية طوائف متباينة الآراء، كل طائفة آمنت برأي من الآراء الثلاثة.

والطوائف الثلاثة تزعم قيادتها ثلاثة من الكهنة، قاد كل منهم طائفة آمنت برأيه؛ فأول الكهنة آريوس، وسميت طائفته بالآريوسيون. والثانى هو نسطور وسميت طائفته بالنسطوريين. والثالث وهو يعقوب الإسحاقي وسمي

أتباعه باليعاقبة أو اليعقوبيين، ولكن تلك الطوائف الثلاثة أصبحت فيما بعد طائفتين لانقراض الطائفة الثالثة وذوباها في الطائفتين، والطائفتان الجديدتان هما طائفتي الأورثودكس، والكاثوليك اللذين لا يزالان في وقتنا الحاضر، وإشارة واجبة أنه لم يظهر في ذلك الحين والبروتستانت، حيث أن البروتسانت لم يظهروا إلا في عام **١٥٢٩** ميلادية على يد زعيم المحتجين (مارتن لوثر). وقد كان الخلاف في بادئ الأمر خلافًا في الرأي، ثم تحول فيما بعد إلى خلاف طائفي مقيت تعدى حدود الجدل المألوف إلى نصب حبائل المكيدة التي تدبرها كل طائفة للأخرى، ويمكن تفصيل الآراء المختلفة فيما يأتي حتى نزيد القارئ وضوحًا.

أسباب الخلاف:

١- لا يعترف آريوس بلاهوت المسيح، حيث يقول أنه مخلوق ليس مولودًا من الأب، وبذلك فإنه لا يساوي الأب في الجوهر، وأن النبوة مجازية، فلا يصح أن تنسب بنوته للإله، لأن هذا يخالف العقل والمنطق.

٢- ويقول نسطور: أن المسيح ابن الله له أقنومان، والأقنومان هما عبارة عن النور المنبثق، وأن أحد الأقنومين إلهي والآخر بشري، فهو بالأول ابن الله، والثاني ابن مريم.

٣- ويقول يعقوب الإسحاقي ومعه أتباعه من اليعاقبة: أن المسيح أقنوم واحد وطبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وكل من الطبيعة

والمشيئة إلهي؛ ولذلك فهو الله الأب، ضابط الكل، خالق السماوات والأرض.

ومن هنا نشأت الخلافات المذهبية في تكتل يشبه الحزبية، وتفرعت عن ذلك العقائد، واختلفت النظم، وتعددت الطرق في إقامة الشعائر الدينية، وكثرت الطقوس والرموز، وتغالى البعض في الرأي لدرجة التعصب، وتعددت الطرق في إقامة الشعائر الدينية، وتساهل البعض في تعاليمه رغبة في كثرة الاتباع. ثم انقسمت المسيحية في العالم شرقية وغربية إلى طائفتين كبيرتين، ثم إلى ثلاثة طوائف كبرى، ثم تفرع من الطوائف حوالي سبعين طائفة منتشرون في العالم، وإن قسموا حدوده فالأرثوذكسية اتخذت لها من الشرق ركيزة، والكاثوليكية تأصلت في الغرب، حيث خرجت البروتستانية. وإني لا أغفل هنا الإشارة إلى أن مصر –وخصوصًا في الوجه القبلي– استأثرت بالسبعين طائفة التي تفرعت عن الطوائف الكبرى.

تعريف الطوائف:

١– الأرثوذكسية: ومعناها الصراط المستقيم، أو الكنيسة القديمة.
٢– الكاثوليكية: ومعناها المنشقون.

ومن أثر هذا النظام الطائفي وجد النظام الكنائسي، وتفرع إلى ثلاث نظم في تأدية الشعائر الدينية، والنظم الثلاثة هي:

١- نظام الأكليروس: ويبدأ من البطريرك الذي يليه في الرتبة المقارنة، ثم الأساقفة، ثم القسوس أصحاب الامتياز، ويسمون بالقمامصة. والقسوس ذوي المرتبة البسيطة، ويطلق عليهم اسم القساوسة فقط.

ويشترك في كل مرتبة من هذه المراتب شروط خاصة لا مجال لتفصيلها، وهؤلاء جميعًا أصحاب الرأى والكلمة في كل ما يدور حول الكنيسة، وتلك هي الطائفة الأرثوذكسية.

٢- النظام البابوي: وذلك يرأسه البابا والكرادلة، وهم أصحاب الحق الأول والأخير في تنظيم الكنيسة، حيث يتكون منهم المجمع الكنائسي الذي يصدر إرادات بابوية سامية، هي إرادات إلهية، لأن البابا هو تلميذ المسيح الأكبر على الأرض، وتلك الإرادات لا تقبل الجدل أو المناقشة.

٣- نظام ديمقراطي: وهذا النظام الذي اتخذه البروتستانت فيما بعد، ويسمى بالنظام الشعائري المستقل ذاتيًا وتعاونيًا، يتعاون أعضاؤه على القيادة والوعظ فقط.

عقائد المسيحيين:

يقول المطران ثاوفيلس المرقصي في مخطوطه (بستان الأزهار في تفسير الشعار): [٢] أنه بعد وفاة المسيح بحوالي سبعين سنة عندما بدأ مرقص الرسول في كتابة إنجيله، بدأ معه الخلاف في الرأي، ثم تطور الخلاف حتى بلغ أشده سنة **٣٢٥** ميلادية، عندما اجتمع مجمع ضم جميع طوائف المسيحية في الشرق والغرب، واتفق الجميع بعد المدارسة والمناقشة على الخطوط الرئيسية للمسيحية من ناحية العقائد والكتب المقدسة، واتفقوا على المبادئ الآتية:

١- الاعتراف بالثالوث الأب، والإبنو والروح القدس شعارًا للمسيحية.
٢- يؤمن الكل بأن المسيح جاء لتخليص العالم من خطيئة آدم الموروثة.
٣- المعمودية سواء برش الماء أو غمر جزء كبير من الجسم فيه بعد صلاة الكاهن على ذلك الماء، ركن من أركان المسيحية الأساسية، وذلك نسبة إلى تعمد المسيح على يد يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) في بحر الشريعة (نهر الأردن).

(٢) هذا المخطوط محفوظ بمكتبة الدير المحرق تحت رقم ١٠٣ من مؤلفات الآباء المرقصين المتنيحين، ومكتوب باللغة القبطية وكل صحيفة أمامها صحيفة ترجمتها باللغة الرعبية الدارجة بخط المؤلف.

٤- المناولة: وهي أكل القرابين رمز لجسد المسيح، وشرب الخمر المعتقة إشارة إلى دم المسيح المسفوك على خشبة الصليب، وذلك اعتراف من المجتمعين بصلب السيد المسيح.

كما أجمع المجتمعون على الاعتراف بالكتب المقدسة التي يضمها الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث، وما استقر عليه الرأي من الكتب والرسالات المعترف بها، وفي جملتها الكتب الآتية:

١- أسفار اليهود، العهد القديم؛ أى التوراة، من ضمن الكتب المعترف بها، وتعتبر نصف الكتاب المقدس عند المسيحيين.
٢- العهد الجديد: ويضم الأناجيل الأربعة، وهي (متى- مرقص- لوقا- يوحنا)؛ وهي عبارة عن تاريخ المسيح ومعجزاته.
٣- أعمال الرسل: وهي نبذ تحوي مجهود الرسل (تلاميذ المسيح) في التبشير والدعوة.
٤- الرسائل: عبارة عن خطب وعظات ألقاها تلاميذ المسيح في الأمم المختلفة داعين أهلها للمسيحية، وتعتبر تلك الرسائل أساس علم اللاهوت.
٥- رؤيا يوحنا اللاهوتي: وهي عبارة عن رؤياه التي تحوي تنبؤاته.

أما البروتستانت الذين سبق الإشارة إليهم، فقد جاءوا برأي يطابق رأي آريوس الذي يقول أن الجوهرين لا يتساويان، وقد قامت قومة البروتستانت على أساس الدعاية إلى وجوب التقيد بما تحويه الكتب

السماوية الرئيسية، ويرجع وقت قيام البروتستانت إلى عام **١٥٢٩**م الذي رفضوا فيه تنفيذ أوامر الإرادة البابوية، وقد اهتموا بالمبادئ الأخلاقية من المسيحية قائلين: إن الدين ليس في مجرد الطقوس، وإنما هو في الأخلاق التي هي ثمرة الدين المسيحي الحقيقية.

ولم يعترفوا لا بالمعمودية، ولا بالمناولة، ولا بالاعتراف، وإن كانوا يعترفون بصلب السيد المسيح كما يعترف جميع الطوائف أن السيد المسيح تأنس وتجسد في بطن مريم العذراء، ثم جاء يدعو، وختام الدعوة أنه صلب على خشبة الصليب ليخلص دمه المسفوك العالم من خطيئة آدم عليه السلام.

ويمكن أن نختم هذا الموضوع معترفين أن المسيحية في أولها دين روحي سماوي جاء به المسيح من عند الله كما يقول الله تعالى في القرآن الكريم: (إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِّنْهُ). ولكن الكهنة في كل زمان ومكان كانوا يحتكرون الأسرار لأنفسهم، تلك الأسرار التي لو كشفنا عنها لتبين أنهم يعرفون الحق ويحيدون عنه، وأنه ليمنعني من الدخول في أسرار الكنائس عديد من الاعتبارات سوف تزول ويأتي الوقت الذي نفصح فيه عن كل شيء.

ونعود لقولنا بأن رجال الكهنوت قد احتفظوا بكثير من الأسرار، وأباحوا الرموز للشعب، وهذه سنة جرى عليها جميع الكهنة من قبل المسيحية، وقد فصلنا ذلك في الفصول السابقة.

وقد أشار السيد المسيح إلى هؤلاء الكهنة عندما وجه القول إلى الفريسيين، والصدوقيين من اليهود قائلاً لهم: "لا تضعوا المصباح تحت الكيال"، وقد عنى المسيح بالمكيال الرموز والطقوس، كما عنى بالمصباح الحقائق المستورة تحت الرموز والطقوس.

الفصل الثامن

الإسلام

لما كان كل شيء له أساس يقاس عليه مدى أهميته، كذلك المبادئ مهما كانت فقد وضعت على أسس بصرف النظر عن قيمة تلك الأسس سواء كانت ثابتة القواعد أو منهارة الأركان. وكان لواضعي المبادئ، والنظم، والقوانين أهداف بنيت على تلك الأسس، متخذين من الوسائل مطايا وإمكانيات لتوصيلهم إلى تلك الأهداف.

ولما كان خلق الإنسان على أساس: (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ومَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ)، كانت العقائد الإسلامية تقوم على أسس، وأركان، وقواعد بنيت كلها على أساس واحد هو التوحيد. وكانت الركائز الخمس هي منبع الخطوط العريضة التي بدأت بتعليم الناشئ دروسًا تتفق والفطرة التي فطر الله عليها ذلك الناشئ.

ومن هنا تكون بداية الإنطلاق في التبحر، وقد آثرت أن أبدأ الكتابة من حيث يبدأ ناشئ الفطرة، وذلك لن يتأتى إلا بشرح موجز للأركان، وذلك لكى يكون هذا الشرح فتحًا للطريق، وبداية للانطلاق، وتهيئة للمصير.

ولما كانت قواعد الإسلام الخمس في أدائها غاية، وفي تأديتها هدف لمن يؤديها؛ فالغاية منها الوصول إلى الله، والهدف منها أن يكون المؤدي عبدًا مطيعًا متعبدًا حائزًا لرضا ربه، فكان لابد من البدء في عقيدة الإسلام أن يبحث في الألوهية والربوبية، وهذا هو الهدف الأسمى.

الله:

لم يدع القرآن شائبة من ريب أو شك في مسألة الوحدانية الإلهية، فقد علم المسلمين التوحيد الخالص الذي قضى على تيارات التعدد والشرك، بل ذكر لله صفات دلت على قدرته ووحدانيته، وأنه ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء، لم يكن الله والدًا لولد ولا مولودًا لوالد أو والدة.

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ ولَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ) سورة يونس آية ٦٨

(ومَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ ولَدًا إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وعَدَّهُمْ عَدًا) سورة مريم آية ٩٣، ٩٤.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) سورة الإخلاص.

واحد صمدي أزلي، رب العالمين، رب الناس، ملك الناس، إله الناس، رب الفلق، رب البيت، رب المغفرة، يدخل من كتبت لهم السعادة

في دين الله أفواجًا، وإذا ما دخلوا وتمسكوا وآمنوا بدين الله الحى القيوم سبحوا بحمد ربهم واستغفروه إنه كان توابًا، فأطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف، وتولدت فيهم العقيدة الصحيحة، ورسخ عندهم الإيمان أن الله:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ) سورة غافر آية ١٩.

(عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) سورة فاطر آية ٣٨.

(ومَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ) سورة المؤمنون آية ١٧.

(وسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) سورة الأعراف آية ٨٩.

ومن صفاته:

(هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والْبَاطِنُ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) سورة الحديد آية ٣

(الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ) سورة الفرقان آية ٥٨

(وهُوَ الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ) سورة المؤمنون آية ٨٠

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وجْهَهُ) سورة القصص آية ٨٨

(لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) سورة سبأ آية ٣

(وهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) سورة يس آية ٧٩

(أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ) سورة الأعراف آية ٥٤

ومع اعتقاد المسلم في صفات الله عز وجل، فإنه لا يمكن أن يؤمن أبدًا، أو يتسرب إليه مجرد التفكير، أن تلك الصفات تعدد يشبه التعدد في الثالوث البرهمي، أو الثالوث البوذي، أو الثالوث الصيني، أو التاسوع المصري القديم، أو الثالوث المسيحي أو الثنائي الذي يقول: هناك إله للظلام أو إله للنور. أو كما يقول القائلون أن هناك إلهين أحدهما إله الخير والآخر رب الشر، إنما يؤمنون إيمانًا جازمًا أن تلك الصفات لرب واحد بعيد عن النقائص التي لا تجوز في خلق الإله.

والمسلمون جميعًا لا فرق بين طائفة وأخرى يؤمنون أن الصفات إن دلت إنما تدل على أنه القادر على كل شيء، الخبير العليم الرزاق ذو القوة المتين، المنفرد بالوحدانية الفعال لما يريد، الودود ذو العرش المجيد، الرحمن الرحيم الكامل المنزع، من قدرته الخلق، والحياة، والموت، والإرادة، والعطاء، والمنح، والمغفرة، والهداية، لا شريك له ولا مثيل.

وبتلك العقائد انتشل الإسلام البشرية من عناصر الشرك والجهالة، حيث ترك لمعتنقيه حرية العقيدة عن إيمان لا تشوبه شائبة، وأَفسح أمامهم المجال للتفكير والتأمل والتطلع، وبذلك تخلصت العقيدة من كل شائبة، فأصبحت صافية نقية كالمرآة.

وعلى أساس تلك العقيدة وهذا الاعتقاد، كانت أركان الإسلام الخمس هادفة إلى التوحيد، راسمة الخطوط العريضة التي تمكن المسلمين من

شق طريقهم في الحياة، جامعين بين أيديهم مطالب الدنيا والآخرة، وإليك الأركان الخمس في شرح موجز يدل على ما هدف إليه الإسلام مكنونًا في عقائده.

الشهادتان:

هما لب العقيدة ظاهرًا وباطنًا، جهرًا وسرًا، أولاً: هما شهادة أن لا إله إلا الله، شهادة بالوحدانية المطلقة بغير حدود، واعتراف من العبد أن لا إله إلا الله الملك القدوس المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه وتعالى عما يشركون، شهادة تخرج عن إيمان صادق يجزم جزمًا تامًا وحقيقيًا يقضي على عقابيل التعدد في كنه الإله حتى لا ينزلق العبد إلى التجسيم الذي طالما وقع فيه غيره قبل الإسلام، وبعد كل دعوة للتوحيد بسبب تغلب الكهنة والقادة على فطرة البشر.

وهذه الشهادة حوت بجانب ما حوته من توحيد الله اعترافًا بأنه لا عظمة لإنسان على أخيه الإنسان، ولا كبرياء لمخلوق على مخلوق، تطبيقًا لما رواه النبي عن ربه، حيث قال سبحانه في حديث قدسي: (العظمة ردائي والكبرياء إزاري، من نازعني فيهما قهرته ولا أبالي). ولا فضل لعبد على عبد، إنما الكل عباد لله أمام ربهم سواسية كأسنان المشط، وأن عظمة الإنسان تتجلى في عبادته الخالصة ومدى طاعته لربه، ولهؤلاء العظماء من بني الإنسان أمثال ذكرها الله في القرآن الكريم مانحًا إياهم صفات العظمة. فقد ورد في حقهم أنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ويتفكرون

في خلق السموات والأرض متجهين إلى الله مناجين صاحب العزة والجبروت: (سبحانك ما خلقت هذا باطلاً). أولئك أولوا الألباب الذين إذا مروا باللغو مروا كرامًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، آمنوا بربهم وتحروا في إيمانهم رشدًا، أولئك هم المؤمنون حقًا، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم.

أما الشهادة الثانية بأن محمدًا رسول الله، واعتراف منهم بمقدار النبي الذي بعثه الله للناس كافة فأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، وهداهم إلى صراط العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما، فقد قاد عباد الأصنام، وتجار النساء، ووآد البنات، ومحترفي الحروب والمنازعات والسجد للاّت، والعزى، وهُبَل إلى مواطن العبادة الصحيحة؛ وبذلك أصبحوا داعين لربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، لا تعد أعينهم عن أمر الله يريدون زينة الحياة الدنيا، بعد أن كانت قلوبهم في غفلة، وكانوا تبعًا لهواهم فكان أمرهم فرطًا.

وهذه الشهادة وهذا الاعتراف لا ينسي المؤمنين بنبوة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام، أن ذلك الرسول إن وجبت طاعته فلا تجب عبادته، وأن محمدًا بشر تجري عليه سنة الحياة والموت، كما تجري على أي إنسان. وأن خير ما يقال ويستدل به في هذا المقام قول أبي بكر الصديق، وهو أول من آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام، فقد خاطب الناس وهم في هلعهم عند سماعهم خبر موت النبى صلاة الله وسلامه عليه: (أيها الناس من يعبد الله فالله حي لا يموت، ومن يعبد محمدًا فمحمد قد مات).

وكل شهادة المسلم لمحمد عليه الصلاة والسلام لا تتعدى أنه نبي ورسول، ولا تعدو أن يكون ذلك النبي مرسلاً من الله فبلغ الرسالة، ومؤتمنًا من ربه فأدى الأمانة، وترك المسلمين على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وذلك بناء على وحي الله لنبيه. وقد ورد في القرآن قول الله آمرًا ذلك النبي:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ...) سورة الكهف آية ١٠١.

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاغُ) سورة الشورى آية ٤٩.

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ومَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ) سورة النور آية ٥٤.

(ومَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) سورة ق آية ٤٥.

(لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ) سورة الغاشية. آية ٢٣.

(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا ونَذِيرًا) سورة سبأ آية ٢٨.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) سورة الأعراف آية ١٥٨.

وليس معنى ما تقدم أن السملم يؤمن بنبوة مُحَّد وحده، إنما فرض على المسلم أن يؤمن بجميع الرسالات وجميع الأنبياء والرسل من يوم أن خلق الله آدم إلى يوم أن بعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام. ورسالة مُحَّد تختم الإيمان بجميع الرسالات التي سبقته، وأن دينه كان متممًا لتلك الرسالات.

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ) سورة البقرة آية ٢٨٥.

(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ومَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ومَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ومَا أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى ومَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) سورة البقرة آية ١٣٦.

وخلاصة الشهادتين أن الإله منفرد بالوحدانية والصمدية والأزلية، فلا ثلاثي ولا ثنائي، بل لم يكن له كفوًا أحد، وأن محمدًا لم يكن إلهًا، أو ابنًا لله، أو أقنومًا من أقانيم ثلاثة أو تسعة، بل نبيًا ورسولاً إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، وأن رسالته متممة للرسالات السماوية (لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) سورة النساء آية ١٦٥.

إقام الصلاة:

إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا، يخلص العبد حيث وأينما أدركه وقت الصلاة، لا حاجة به إلى إمامة، أو كهانة، أو سلطة. وفي الصلاة صلة روحية بين العبد وربه، يقف بين يدي ربه مستفتحًا صلاته بتكبيرة الإحرام، اعترافًا منه بأن الله أكبر من كل شيء، رحمن رحيم، مالك يوم الدين، إياه وحده يعبد وبه يستعين على الشدائد، ويعوذ به من غضبه، ويطلب منه الهداية إلى الصراط السوي المستقيم، وأن ينأى به عن صراط الذين غضب عليهم فضلوا سواء السبيل، ثم يقرأ ما تيسر من القرآن متدبرًا المعاني، سابحًا بلبه مع ما حوت الآيات من أوامر ونواهي، ثم يفارق الدنيا إلى وقت ما، ويطير من الأرض فيحلق مع روحانية الرآن في جو ملكوتي، وتتطهر روحه مما ألم بها من مشاغل الدنيا ورجس الحياة.

وإذا ذهب إلى المسجد في صلاة الجماعة، فالإمامة للأصلح باختيار جماعة المأمومين للإمام، بحيث لا ترتفع درجة الإمام في الصلاة إلى درجة أعلى من درجة النبي الذي ورد في حقه: إن هو إلا بشير ونذير، وليس عليهم بمسيطر.

ولكن الطاعة للإمام واجبة، فالسجود حيث يسجد والركوع أنى ركع، والقيام إذا قام. وهذه الطاعة، وهذا النظام، وذلك التواضع الذي

يوجب على الأمير أن يصلي مأمومًا لمن هو دونه في المرتبة، لا يمنع من رد الإمام إذا حاد أو خرج عن المشروع الذي أمر الله به.

وإن الصلاة في الإسلام تتطلب من المسلم أن يتخلص من كل ما يتعلق بالحياة الدنيا وقت الصلاة، وأن يتجه إلى ربه بكليته في خشوع وخضوع الفقير المحتاج إلى الله الغنى الحميد. وفي هذا المقام ورد عن السلف أن النبى ﷺ رأى مسلمًا يحك بعض أعضائه فقال: والله لو خشع قلب هذا الرجل لخشعت أعضاؤه.

وبجانب هذه الرياضة الروحية فللصلاة فوائد تتجلى في الرياضة البدنية التي تعود على البدن بالصحة، والنشاط، والقوة إن أديت بركوع، وسجود، وقيام حسب أمرها. وعبادة الإسلام تجمع بين رياضة الروح ورياضة الجسد، والعقل السليم في الجسم السليم، فالإسلام عبادة وقيادة روحانية وعمل.

إيتاء الزكاة:

الزكاة في فرائض الإسلام، منبه للفرد بحصة الجماعة في ماله، والمذكر له بأن عليه واجبات تقابل حقوقه على تلك الجماعة، حتى يشعر أنه ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط، لأن من حق الجماعة على الفرد أن يعمل له ولغيره، وما الزكاة إلا تجربة واختبارًا له فيما تهواه نفسه من ماله ومتاعه.

وقد جعل الإسلام دفع الزكاة فريضة على الغني يدفعها من ماله عن رغبة للفقير والسائل الذي له حق معلوم في مال ذلك الغني، وأن هذا الحق المعلوم للسائل والمحروم لهو صدقة تطهر مال الغني وتزكيه، (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة). وعلى قدر العطاء ومقدار ما شمل به هذا العطاء من راحة نفسية، وما انطوت عليه النية في توجيهه يضاعف الله لمن يشاء.

وبهذه الروح تسود المحبة بين المجتمع غنيه وفقيره، فلا ضريبة تؤخذ قسرًا من الغني، ولا حقدًا، ولا حسدًا من الفقير، إنما المؤمنون إخوة كلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، مثلهم في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له جميع الأعضاء بالحمى والسهر. وبذلك يكون المجتمع الإسلامي مجتمعًا سعيدًا تلاشت منه كل أسباب الفقر والحاجة، مما يدفع عجلة الإنتاج إلى الأمام.

وقد جعل الإسلام الزكاة من أهم أركانه، وقرنها دائمًا بالإيمان بالله وبالصلاة؛ وذلك لأهميتها العظمى التي تتجلى في التوازن الاقتصادي، وتقليل الفروق بين الناس، وتقريب الطبقات. وقد بلغ من اهتمام الإسلام بأمرها حدًا بعيدًا يظهر واضحًا في قول أبي بكر الصديق عندما امتنع الناس عن دفعها بعد وفاة النبي ﷺ: (والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لحاربتهم عليه حتى يؤدوه). وبهذه الروح كانت الزكاة عقيدة من عقائد الإسلام، وركنًا من أركانه الخمس.

صوم رمضان:

لم يقصد بالصوم في الإسلام الامتناع عن الطعام لمجرد الجوع والعطش، إنما كان للصيام أهداف سامية، وتلك الأهداف ذات شقين: أحدهما روحي وهذا له فائدتان؛ إحداهما تعود على الإنسان نفسه، والأخرى تعود على المجتمع. والشق الآخر دنيوي أخروي يعود على صحة الصائم بالقوة والنشاط.

فالفائدة الأولى من الشق الأول هي تنقية نفس الصائم من الشوائب التي شابتها، فبجانب حرمانه من ملذات الحياة التي تعوّد عليها ردحًا من النهار، تجمده طول يومه، يسبح ربه ويستغفره ممتنعًا عن بذئ العمل وفاحش القول، متخذًا مما روي في حق الصوم: أن كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فهو من الله درسًا يهديه إلى طريق ربه، ويجد في القصص القرآني خير معين على تربية نفسه تربية صحيحة على الصبر والاعتصام بأسوار العزيمة، والبعد عن اللغو: (إني نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًا). (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا).

والفائدة الثانية تكون أثرًا من آثار الحرمان، فيذكر المحروم، وتأخذه الشفقة، ويعطيه مما أفاء الله عليه، وبذلك يكون الصيام وسيلة من وسائل الرحمة لهؤلاء الجياع والمحرومين؛ ولذا كان تتويج شهر رمضان بزكاة الفطر حكمة من الحكم التي أوحى بها الصيام، فقد أراد الله بها مشاركة الفقير للغني في عيده، وفرحته، وسروره.

أما الشق الثاني فمتفق تمامًا مع الطب الذي يأمر بعض من أتخمهم كثرة الطعام (بالرجيم): وهو الامتناع عن أنواع معينة من الطعام، وأحيانًا الامتناع عن الطعام كله مدة طويلة. وقد سبق الإسلام الطب في هذا المقام؛ وذلك أنه عندما أرسل المقوقس عظيم القبط طبيبًا ضمن هدايا أرسلها إلى الرسول ﷺ، فتقبلها جميعًا إلا الطبيب، فقد رده قائلاً صلوات الله عليه ما معناه: لا حاجة لنا به لأننا قوم لا نأكل إلا إذا جعنا وإذا أكلنا لا نشبع. إذن فالصيام صحة للبدن حيث تستريح المعدة راحة تامة مما أتخمت به من الطعام أحد عشر شهرًا؛ ولهذا قيل عن الصيام أنه تأديب بالجوع، وحرمان مشروع فيه لله خضوع وخشوع.

الحج:

شرع الحج في الإسلام على أسس سامية، ولأهداف عليا، فلو رجعنا إلى التاريخ القديم نجد أن الله أمر نبيه إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت العتيق في المكان الذي أسكن فيه ذريته: (وإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وأَمْنًا واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وعَهِدْنَا إلَى إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والْعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ) سورة البقرة آية ١٢٥.

وهذا الأمر كان بناءً على دعوة دعاها إبراهيم عليه السلام: (وإِذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ ومَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلَى عَذَابِ النَّارِ وبِئْسَ المَصِيرُ وإِذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا

تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) سورة البقرة الآيات ١٢٦، ١٢٩.

إذن فالحج صلة روحية بين شجرة الأنبياء، وجنة الرسالات، وهمزة الوصل بين ملة إبراهيم وملة محمد كل منهما حنيفًا من المسلمين؛ فكان الحج تكريمًا من الله لإبراهيم الذي قال في حقه: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا ولا نَصْرَانِيًّا ولَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ومَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) سورة آل عمران آية ٦٧. ولكي يبلغ التكريم مداه فقد استجاب الله دعاء إبراهيم (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) سورة إبراهيم آية ٣٧.

فشرع الحج وذلك وعد من الله الذي كفل أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى مكان ذرية إبراهيم. حيث أمره (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) سورة الحج آية ٢٧.

فالمسلمون يأتون من كل فج عميق يكونون مؤتمرًا إسلاميًا كبيرًا يتبادلون فيه الرأي، ويتذاكرون أحوالهم ويتابعون الخطط التي تعود على الأمة الإسلامية جمعاء باليمن والبركات، فتتمثل في الحج الإخوة الإنسانية على بعد الأديار، وتنائي الأقطار، واختلاف الشعوب والأجناس، فيلتقي

المسلمون في المكان التي صدرت منه الدعوة، فتزول الفوارق والأحقاد، ويحل محلها الحب والوئام. كأن يضحي بذاته في سبيل المجموع، لأنه جاء إلى المكان الذي ضحي فيه بدم البشر سواء كان على الصليب أو بالسكين، وخصوصًا من استسلم لأبيه طاعة لربه قائلاً: (افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) سورة الصافات آية ١٠٢.

وبهذا ولهذا كانت الأركان الخمس هي عقائد المسلمين التي بنيت على التوحيد الخالص مع الإخاء بين البشر والمساواة بين الخلق، ونظمت حياتهم في الدنيا والآخرة.

(وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ولا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ) سورة القصص آية ٧٧.

الفصل التاسع

ميزان العقائد في الأديان

مما تقدم يمكن للقارئ أن يوازن بين العقائد في جميع الأديان، وفي هذا التوازن ومن المقارنة يستطيع أن يدرك أن العقيدة الإسلامية جمعت بين حياة المسلم في دار ممره ودار مقره، وأن أعز ما يفخر به المسلم أنه حر في عقيدته التي بنيت على التفكير المطلق، والتأمل الحر، والبحث عن الحقائق بدون خضوع للهيكل وطقوسه، أو خشوع للصنم وقرابينه، أو وقوف أمام المذبح ومحرقاته. فلم يكن دينه تفضلاً من كاهن يمن عليه به، أو سجوده لأيقونه، أو ركوعه لوثنه، كما لم تكن عبادته وقفًا على شعائر أو مراسم داخل المعبد مدى حياته.

وقد كانت الأديان قبل الإسلام عبارة عن كهانة، وطقوس، ومراسم، ورموز كلها تشير إلى الوثنية بكل معانيها، كما كانت تأخذ بيد صاحبها إلى تعدد الآلهة، وتعدد الكهنة، وتعدد الشعائر مما انتهي بأهل الأديان إلى حالة يرثى لها من الجمود الذي أرغمهم وتغلب على فطرتهم حتى تخلوا عن التفكير السليم؛ فعظموا الصور والتماثيلو وربطوا كل تصرفاتهم التعبدية بالمعبد والكاهن، فلم يكن لهم أن يبرموا أمرًا من أمور الدين دون أن يكون

الهيكل وكاهنه صاحبي الأمر، والشورى، والكلمة الأخيرة في هذا الرأي، حتى أصبح المتعبد وكأن المعبد لازمة من لوازم حياته العقائدية، حيث لا تتم له عبادة، ولا يستقيم له أمر، ولا يصح له وصل، ولا يملك شفاعة عند الآلهة، ولا تستجاب له دعوة دون الكاهن.

وقد اتخذ الكهنة من عقيدة الناس وسذاجتهم طريقًا للتجارة بالأديان، وأنشأوا القاعدة القديمة المشهورة التي جعلت الكاهن نائبًا لله، والملك ظل الله في أرضه. بل ألّهوا الكهنة أنفسهم تأليهًا تامًا، وطالبوا شعوبهم بعبادتهم، ففي البداية كان الإله واحدًا، ثم الإله ممثلاً في قوى الطبيعة ومظاهرها، ثم حل الإله في الكهنة والملوك أحياء وأموات.

فمن الأديان السابقة يمكنك أن ترى الهنود مثلاً وقد اعتقدوا أن الإله الذي لا يرى نحت اسم براهما، ثم تطور إلى الثالوث (براهما– فشنو– سيفا)، ثم تطور إلى عبادة الكهنة، ثم عبد الناس المقربين إلى الكهنة. وعلى هذا المثال يمكن معرفة العبادة في الأديان الأخرى حيث أنها تشابهت في العقيدة.

ثم جاءت الأديان الكتابية مبعوثًا بها رسل من عند الله مبشرين ومنذرين، ولكن الكهنة اليهودية، والفريسيين، والأحبار، والصديقيوم – كما هو وارد في التوراة– شوهوا جلال الدين، واخترعوا وابتدعوا مما أخرج الدين السماوي الجليل إلى حلبة المنافسات على النبوة والتجارة التعبدية حتى انتهوا إلى عبادة الأصنام والأوثان.

ثم جاءت المسيحية تدعو إلى الفضيلة في أسمى مراتبها ومعانيها، ثم خرج بها الكهنة ورجال الأكليروس إلى شرك ظاهر يتمثل في التعدد الممقوت الذي يكمن وراء التثليت وتأليه القديسين والشهداء، ثم انحدروا بها إلى حضيض العقيدة، فأصبح القسيس وكيل الله على الأرض. ما يحله القسيس في الأرض يحله الله في السماء، وما يربطه على الأرض يربطه الله في السماء، حتى تحولت المسيحية التي جاء بها المسيح لتخليص العالم من ترهات اليهود عن طريقها الذي رسمه الله إلى طريق رسمه القساوسة والكهنة.

ولما بعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام بدينه الإسلام، وشهادة الوحدانية بغير حدود، دين التحرر الوجداني من ربقة الاستعمار الكهنوتي، وخرج المصباح من تحت المكيال فظهرت الحقائق واضحة، وطمست الرموز والطقوس، عرف المسلم أن الله معه أينما حل، وأينما ارتحل، وحيثما كان لا يفارقه لحظة في أي مكان أو زمان، يناجيه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه: (وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ولْيُؤْمِنُوا بِي) البقرة ١٨٦.

الله قريب من عبده سواء كان العبد في يقظة أو منام، وأن عبادة المسلم دائمًا لله سواء كانت في الفيافي والقفار، أو على ظهر السابحات في البحار والأنهار، أو على رؤوس الجبال، أو في جوف الأرض، أو في أجواء الفضاء. تلك عبادة عبد الله الواحد القهار الذي علّم عباده (فأينما تولوا فثم وجه الله). وبجانب هذا يعلم العبد تمام العلم ويوقن تمام اليقين أن

عبادته موجهة إلى رب واحد لا شريك له: (قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ) سورة الأنعام ١٦٢، ١٦٣.

والمسلم في صومه وحجه وزكاته لا يحتاج إلى كاهن يبارك له تلك العبادات، أو يرسم له طريقها، فهو يعلم كيف ولمن يؤديها، لأنه بفطرته عرف من خلقه ورزقه، ومن إليه يرجع الفضل كله. ويدلك على هذا نشأة الإسلام في بيئة بدوية بدائية بعيدة عن الثقافة والمدنية، فكانت أحكامه أقرب إلى البساطة الفكرية، فاستساغها أصحاب القلوب السليمة بعد أن سئموا الرموز والطقوس، كما تذوقوا حلاوة خواص الإسلام التي يمتاز بها عن غيره من الأديان، والتي تتلخص في عدم اعتراف هذا الدين الجديد بطبقة من الكهنة التي تحتكر شعائره، وعلاقة الفرد فيه متصلة بخالقه مباشرة دون وسيط، والأعمال بالنيات "ولكل أمرئ ما نوى".

وكذلك النبي محمد الذي بعثه الله رحمة للأمم كافة، حيث أتى بدين الإسلام لم يدع أنه فوق البشر، ولم يذكر الله في التنزيل أنه كان شيئًا غير إنسان، فما هو إلا بشير ونذير، ورسول قد خلت من قبله الرسل، ومذكر ليس بمسيطر. ويكفي المسلم أن يقرأ في القرآن (ومَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ)، (إنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)، (فَذَكِّرْ إنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ إلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ).

وليس بمستغرب على الإنسان أن يحدد مركز النبي ووظيفته، وذلك درءًا للشبهات التي وقع فيها رجال الدين، وكانت سببًا من أسباب انهيار الأديان، وانصراف الأتباع عن دياناتهم، والبحث عن أديان أخرى، حتى جاء الإسلام فدخل فيه الحائرون أفواجًا، وسبحوا بحمد ربهم فوجدوه غفورًا توابًا.

وتأكيدًا لسلامة العقيدة لم يترك القرآن فرصة للمتلاعبين، حيث لم يجعل عبء الرسالة على محمَّد وحده، أو على أحد دون أحد من المسلمين، بل طالب الأمة الإسلامية جمعاء أن يكون كل فرد فيها رجل دين. فقد أمر الإسلام جميع المسلمين، لا علماء الدين فقط، بأن يكونوا دعاة آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) سورة آل عمران آية ١١٠. وقد قال نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام مكلفًا أتباعه بأن يقف كل منهم جنديًا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر (من رأى منكم منكرًا فلغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وهذا أضعف الإيمان).

ورجل الدين في الإسلام مهما بلغت منزلته، ومهما بلغت به التقوى، ومهما وصل إلى الورع لا يتعدى أن يكون عبدًا لله، لأنه له في رسول الله أسوة حسنة. حيث أنه لا يمكن أن يكون أعظم من محمَّد الذي أتى بهذا الدين ووصفه الله أنه عبد من عباده (سبحان الذي أسرى بعبده...)، كما أن رجل الدين لا يمكن أن يأخذه الغرور فيدعى أنه صاحب الدين؛ ولذا

كانت له الحصانة حيث أوجب عليه أن يقول في قنوته (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحَّداً عبده وسوله).

كيف لرجل الدين وهو يشهد أن صاحب الرسالة ﷺ عبد الله ورسوله يظن أنه المسيطر على هذا الدين، أو أنه يمتاز عن باقي الأمة الإسلامية في المعاملة أمام الله، والكل عند الله على قاعدة واحدة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) سورة الحجرات آية ١٣.

وقد حرم الإسلام على المسلم الإيمان بالوساطة، أو الشفاعة (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ولا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ) سورة البقرة آية ٢٥٥.

كما حرم الإسلام التوسل والدعاء لغير الله (والَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ولَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ). سورة فاطر ١٣-١٥.

وقد أشرك الله المسلمين جميعًا في الدعوة وجعلهم خلفاء في الأرض، يبشرون بدعوة الله، ويدعون إليه على بصيرة كما دعاهم مُحَّد من قبل (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا ومَنِ اتَّبَعَنِي). سورة يوسف ١٠٨.

وليس في الإسلام خطيئة موروثة تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبي أو ابن لله، بل آمن المسلم أن كل إنسان مسئول عن ما اقترفه، يحاسب عليه يوم (لاَّ يَجْزِي والِدٌ عَن ولَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن والِدِهِ شَيْئًا)، (يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وأُمِّهِ وأَبِيهِ وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)، (وكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا).

وبالميزان تخرج كفة العقائد في الإسلام راجحة، فالله الذي يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شريك في الملك سبحانه وتعالى عما يشركون، وأن الإسلام قد أوضح الطريق أمام المسلم إلى عقيدة صحيحة في الذات الإلهية، كما أرشده إلى عقيدة سليمة في الهداية النبوية، وربى فيه عقيدة الإنسانية لا تعلوها عقيدة، وأن أحكام الإسلام لا تعوق المسلم ولا تقيده بقيود مخترعه أو أغلال مصطنعة.

الباب الثانى

الإنسان والإنسانية

الفصل الأول

الإنسان في الأديان

إن الأديان التي سبقت الإسلام لم تحدد مركز الإنسان تحديدًا صحيحًا يليق بمركز الإنسانية، ولم يدع للإنسان الوسائل التي تمكنه بالشعور أنه عضو في المجتمع، مكلف بتأدية ما خلق له، فيقوم بما وضع على عاتقه من واجبات لقاء ما له من حقوق. وذلك كان سببًا قويًا لاختلاط الواجبات بالحقوق؛ وذلك لأن الأديان جعلت من الإنسان كائنًا مسيرًا غير مخير، فأصبح كآلة صماء تعمل دون أن يكون لها إرادة.

فالهنود يقولون أن الإنسان لا اختيار له في الحالة التي يولد عليها، لأنها مكتوبة عليه قبل ولادته من الأزل، وأنه محكوم عليه بالانفصال من عداد الخلق، ولن يكتب عليه شقاوة أو يكتب له نعيم قبل أن يذهب إلى عالم الفناء (النرفانا) المطلق من قيود الوعي.

والديانة الفارسية (المجوسية) تركت الإنسان ومصيره المصير عليه مدفوعًا بغير إرادته، فإن صادفه رضاء إله الخير وغمره بنوره يكون خيرًا مختارًا ينعم عليه بالحياة السعيدة في حياته الدنيا والآخرة، أما إذا التقى به إله الظلام وطواه في شره دون أن يكون له رأي في ذلك، مرغمًا على أن

يدخل الظلام فيشمله الشر ويطرد من النور، وتكتب عليه الشقاوة، ويدرج في عداد التعساء البائسين إلى أبد الآبدين دون ذنب جناه، أو جريرة فعلها، أو خطيئة أرتكبها. كما أن ذلك الإنسان الذي صادفة إله النور يستحيل عليه الدخول في الظلام مرة أخرى حتى ولو أرادت له شهوته وجره سوء فعله إلى الظلام، وذاك الذي زج به في الظلام، ظلمًا رغم إرادته لا يمكن أن يلمس النور والخير مهما حاول التقرب إلى إله النور، ومكتوب على كفاحه وجهاده في هذا السبيل الفشل الذريع.

أما اليونانيون فقد آمنوا بإله النقمة (نمسيس) ربة النقمة، التي لا تعترف باستقلال الإنسان استقلالاً ذاتيًا؛ فذنب غيره محسوب عليه، وهو محاسب بذنب غيره، فتحاسبه على ذنب جاره، وتؤاخذه بجريرة قريبه وبني جلدته، وبهذا يكون الإنسان مدفوعًا إلى مصير محتوم لا يملك لنفسه دفعًا لظلم نزل به، أو دفاعًا عن نفسه من اعتداء وقع عليه مثله كمثل السائمة.

أما الديانة المصرية القديمة فقد كرمت الإنسان تكريمًا إلا أنه كان تكريمًا محدودًا، فهي بالنسبة للأديان التي ذكرناها خير، فقد جعلت حساب الإنسان عن عمله فقط، حيث يقف بعد مماته أمام محكمة إيزيس وأزوريس التي تحاكم الموتى؛ لتحاسبه عما قدمت يداه، وإن كانت نتيجة الحساب متعلقة برضاء الكهنة، أو سخطهم على ذلك الإنسان.

وقد أخضع البابليون الإنسان لطالعه يوم خروجه من بطن أمه، فإن أشرق عليه نجم السعود فهو سعيد، وإن ظلله نجم منحوس فهو منحوس. والسعد والنحس يلازم كل منهما صاحبه طول حياته وبعد مماته، كما يجوز للمنجمين، والمشعوذين، والكهنة أن يتحكموا بالوساطة والشفاعة في مصير الإنسان؛ وذلك بتقديم القرابين، والذبائح، والمحرقات للأفلاك والنجوم. فمن قدم الرشوة والترضية للكاهن تكتب له السعادة في عداد من صادفه النجم السعد حتى ولو قابلهم طالع النحس من قبل، ومن لم يقدم ما فرض عليه كتب منحوسًا حتى ولو كان نجمه سعيدًا يوم ولادته.

والإسرائيليون يعتقدون أن هناك شعبًا اختاره الله، وأن هناك أناسًا رضى الله عنهم قبل أن يروا النور بأعينهم، كما أن هناك خلقًا كتبت عليهم اللعنة وحق عليهم العذاب، وكتبت عليهم الشقاوة.

فأما الذين شملتهم النعمة فأولئك من ذرية يعقوب، والذين عمتهم النقمة هم أبناء عيسو أخي يعقوب، لأن الله قد بارك يعقوب ولعن عيسو وهما ما يزالان جنينين في بطن أمهما، وبهذا قد حكم على الإنسان جنينًا وفي مهده بالبقاء في العذاب المهين حتى لو حاول التكفير عن الخطأ بالإيمان؛ وذلك لأن رب اليهود إله يتفقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع.

ثم جاءت المسيحية بمثلها العليا، ولكن إرادة الكهنة جعلتها تتفق مع الأديان السابقة على حساب الإنسان بجريرة غيره، فقد جعلت الإنسان

محاسبًا بجريرة أصل خلقته؛ فربطت بين خطيئة آدم وذريته إلى يوم القيامة، مما أوقف الإنسان موقفًا لا يحسد عليه بسبب ما ورث من وزر أبيه الأول آدم، فما باله بوزر جده الذي ورثه أبوه، ثم ورث هو وزر أبيه وأوزار أجداده السابقين. هذا خلاف خطيئة آدم الباقية والتي لابد لها من كفارة، وليت الكفارة في مقدور الإنسان، فمقدرة الإنسان عاجزة عن أن تقدم ابنًا لله على عود الصليب، حتى لا يذهب بجريرة آدم أبناء الجنس البشري كله.

وما دامت هذه حياة الإنسان وقيمته الغير مستندة إلى شيء يذكر، فهو سليب الإرادة كشجرة اللباب لا ترتفع إلا إذا استندت على غيرها، أسير في أيدي الكهان، والنرفانا، وإله النور، وإله الشر، والنجم السعيد، والنجم المنحوس، تحت رحمة نمسيس ربة الثأر، منتظر على أحر من الجمر تقرير مصيره على يد محكمة إيزيس وأزوريس.

ولابد للإنسان من البحث عن سلالة طيبة حتى يكون مباركًا كسلالة يعقوب فيطمئن ويرتاح باله، لأنه مبارك من الله. والويل له إن كان من سلالة عيسو فهو ملعون، وما دام قد لعن دون ذنب جناه، فله الحرية أن يترك لنفسه هواها غير آبه بالقيم الإنسانية أو المثل العليا، لأنه مهما عمل من حسنات فهو مكتوب من أهل النار بسبب اللعنة التي نزلت على أصل سلالته وهو ما يزال نطفة أو علقة.

حتى لو كان هذا الإنسان من سلالة يعقوب المبارك، فماذا تنفعه البركة وهو من سلالة آدم الذي عصا وكان عصيانه وبالاً على ذريته، فأورث ذلك الخاطئ بنيه من بعده الذل، والهوان، والبعد عن رحمة الله.

إذن فالإنسان في الأديان قبل الإسلام كائن مبلبل الأفكار، مزعزع العقيدة، مهزوز الأركان، لا يملك لنفسه ضرًا أو نفعًا، وليس لحياته تبيدلاً أو تحويلاً، يعيش في هواجسه حتى يُقضى عليه في زوايا الخمول والنسيان. وبذلك يكون معطلاً عن القيام بدوره في محيط الإنسانية، يحيا بلا هدف، ويعيش بلا ضمير؛ ولذلك عاش جل أيامه عليه تكليف ولم يكن له أي وجه من أوجه التشريف، قضى كل أيامه تحت سيطرة الكهنة، والملوك، والقادة، يرسف في أغلال التحكم البغيض.

فالهنود قسموا الشعب إلى طبقات تتدرج إلى أسفل حتى تصل إلى درجة المنبوذين، وهذا مثل يضرب على باقي الديانات الوضعية. حتى الديانات السماوية، فقد كان كهنتها المتحكمين في الشعب فقسموه إلى فئتين: فئة مختارة، وفئة غير مختارة. ولو تطلعنا إلى الأناجيل لرأينا قصة امرأة سارت خلف المسيح تبغي البركة فحرمت عليها، لأنها ليست من خراف بني إسرائيل الضالة، ولأنها كانت سامرية أو أممية.

ظل الإنسان هكذا حتى جاء الإسلام فعرّفته نفسه، وتلا قول الله: (ولقد كرمنا بني آدم)، ومن هنا عرف الإنسان أنه خلق.

الفصل الثاني

الإنسان في الإسلام

الدارس بغير تعمق في الإسلام يجد أن موقف الإنسان في الدين الإسلامي مثل غيره في باقي الأديان. فقد جاء الإسلام من أجل الإنسان والإنسانية، شأنه في ذلك شأن باقي الرسالات الربانية، ولكن الإسلام كان تتمة الرسالات، فلم يكن فيه الثغرات ولم يسمح لرجال الدين أن يخرجوا به عما جاء به ومن أجله.

فقد خلق الله الإنسان بأسمى الأهداف، ولأجل المهام، خلقه الله ليكون خليفته في أرضه، فقد ورد في قول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة آية ٣ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً). والخلافة في الأرض تحتاج للمؤهلات التي ميز الله بها الإنسان، ولو دققنا النظر في تلك المؤهلات لوجدنا أن قوامها مزيج من المادة والروح؛ فالمادة تتجلى في قول الله عز وجل في سورة ص آية ٧١: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ). وتلك المادة جاءت من طبيعة الأرض التي خُلق الإنسان من أجل عمارتها، أما الروح فهي لطيفة من سر الله سبحانه وتعالى تكمن تحت قوله عز وجل في سورة ص آية ٧٢ (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

ومن هنا كان سر تكوين الإنسان، فقد سجد الملائكة له كلهم أجمعون إلا إبليس الذي أبى واستكبر فكان من المطرودين، وخلق الإنسان بقدرة العلي الكبير من هذا المزيج، فتفاعل سر الروح مع طبيعة الأرض فكان الإنسان تحت تأثير عاملين. أولهما: الأثر الروحي في حياته، حيث كان دائمًا نزاعًا إلى السمو فيتطلع إلى ربه. وثانيهما: أن الإنسان كان ميالاً إلى الانجذاب والرجوع إلى طبيعته الأرضية التي تحبب إليه النزول إلى الأرض، والانغماس في متعتها الحيوانية.

ولذلك نشأت عند الإنسان غريزتان: أولاهما حب البقاء والخلود؛ وذلك مقتبس من مدخل الشيطان للإنسان، وذلك واقع تحت قول ربنا تبارك وتعالى في سورة طه آية ١٢٠: (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لاَّ يَبْلَى). ومن حب البقاء والرغبة في الخلود عرف الإنسان الغرائز الجنسية؛ وذلك بظهور أعضاء التناسل التي ظهرت له بعد أكله من الشجرة المحرمة عليه، وذلك ما بينه الله في سورة الأعراف آية ٢٢: (بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن ورَقِ الجَنَّةِ).

والغريزة الثانية التي نشأت مع حب البقاء، كانت وليدة الأثر الروحي والجانب الإلهي، وهذا واضح من التوبة عقب الخطيئة، فالجانب الإلهي يشرق، ويحتوي الإنسان ميل جارف إلى النزوع إلى الله حين يجد نفسه في حاجة إلى ربه فيقبل عليه في ذلة وخضوع مستغفرًا تائبًا منيبًا مأسفًا نادمًا على ما فرط في جنب الله وما وقع منه من الذنوب والآثام. وإن لأوضح الصور هي لجوء آدم إلى ربه بعد وقوعه في المعصية؛ وذلك ما

ورد في قول الله عز وجل في سورة الأعراف آية ٢٣ على لسان آدم وحواء: (قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وإن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ).

وكان لله حكمة سامية في خلق خليفته من هذا المزيج المركب من الروح والمادة. فعلى قدر إدراكنا يمكننا الاستنباط والخروج بالهدف من وراء تلك الحكمة؛ وذلك يمكن تلخيصه في سببين: أولهما أن الإنسان إذا ما أخطأ وانجذب إلى أرضه فهو بذلك يميل إلى أصله الذي خلق منه، وهو الصلصال –الحمأ المسنون– والصلصال عبارة عن الطينة النتنة من الأرض، ومن أصل الإنسان يتعلم ذلك المخلوق، فلا يتكبر ولا يطغى، ولا يمشى في الأرض مرحًا، وتكون له الحصانة التي تجعله لا يضل فيما يسعى، لأنه عرف أنه موصوف بالنقصان، وأن خالقه موصوف بالكمال، فلا يعترف بما جاء به سفر التكوين، (وهو من أسفار بني إسرائيل) أن الله خلق الإنسان على صورته؛ فلا يصدق ذلك الضرب من ضروب اللهو، ثم يؤمن أن الكمال لله وحده، وأن الله ليس كمثله شئ في الأرض ولا في السماء ولا شبيه ولا مثيل.

وثاني السببين: أن الملائكة قادرون على فعل الخير فقط، لا عمل لهم إلا التسبيح والتهليل والتكبير، وأن الإنسان بمزاجه إذًا قادر على فعل الشر والخير، وبذلك يكون خلقه ممتازًا فيتمكن من القيام بالرسالة الملقاة على عاتقه، وأن رسالة تعمير الأرض لأمر جليل يحتاج إلى ذلك الإنسان

الذي صنعته القدرة الإلهية من هذا الخليط الذي جعل الإنسان معدًا إعدادًا يتكافأ مع حكمة الله عز وجل الذي خلقه لما يسر له.

وخلق الإنسان بغرائزه الحيوانية وأمداده الروحية، لم يكن كفيلاً بمعاونته على تأدية رسالته في الأرض؛ ولذلك اقتضت حكمة الله عز وجل أن تجعل منه قوة إنشائية مباركة، تقوم بما كلفت به على الوجه الأكمل على هدى من الله، فأعطاه الله الموهبة التي جعلته مستعدًا لقبول العلم، والمعرفة، والتفكير، والإنشاء، والتعمير، وتبطل احتجاج الملائكة على خلق ذلك الإنسان عندما جاء على لسانهم في سورة البقرة آية ٣٠: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ).

وكان تشريفًا لذلك الإنسان ونصرًا له من الله على هؤلاء الملائكة المقربين ما جاء في سورة البقرة آية ٢٣: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ).

ولم يكن عصيان آدم وخروجه من الجنة لهوًا أو عبثًا، فقد خلق آدم لعمارة الأرض؛ ولذا لم تكن حوادث إغراء الشيطان له واستدراجه إلا امتحانًا لكي يرى الإنسان ما هو عليه من الضعف البشري والعجز أمام شهواته ونزواته. ولذلك يتولد عنده الشعور بأنه دائمًا محتاج إلى من يهديه، ويرشده، ويرحمه، ويغفرله. وهنا يكون سر التجلي للطيفة الربانية في

الإنسان، ويحسم القرآن الكريم هذا النزاع بقول الله عز وجل في سورة طه آية ١٢١، ١٢٢: (وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَى). ثم يوضح القرآن شعور آدم بالخطيئة واستغفاره ربه وغفران ربه له: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) سورة البقرة آية ٣٧.

ومع قبول الله سبحانه وتعالى توبة آدم وغفرانه له، لم يمنع ذلك من تنفيذ إرادة الله سبحانه وتعالى وإخراجه وزوجه من الجنة إلى الأرض التي خلق لها ومنها، ثم يعود إليه ثم يخرج منها تارة أخرى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفِيهَا نُعِيدُكُمْ ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)، وإلى حيث هبط الشيطان الذي كان سببًا في إخراجهما، والذي استحكم العداء بينه وبين الإنسان من يوم أن رفض السجود لذلك الإنسان (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) سورة طه آية ١٢٣.

إذن فالإنسان والشيطان قد خرجا إلى الأرض وكل منهما يضمر للآخر حقدًا، فالشيطان لا ينسى أنه أخرج من الجنة وهبط إلى الأرض بسبب الإنسان؛ ولذلك فهو يتربص له ريب المنون (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وعَنْ أَيْمَانِهِمْ وعَن شَمَائِلِهِمْ ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) سورة الأعراف آية ١٦، ١٧.

والإنسان يعتبر الشيطان عدوًا له، فقد أخرجه من الجنة بعد أن أغوى فيه طبيعته السلبية الميتة (وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)، فأراد أن يسترد اعتباره متخذًا من طبيعته الإيجابية الحية، طبيعة الروح: (ثُمَّ سَوَّاهُ ونَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) سورة السجدة آية ٩. (سلاحًا يبطش به بذلك العدو اللدود الذي حرمه منزلته).

والإنسان في صراعه مع الشيطان يعمل ما في وسعه، ويبذل أقصى طاقته للانتصار عليه، وهذا الصراع من جانب الإنسان تحقيقًا لإرادة الله عز وجل: (ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ). فيحافظ على المرتبة العظمى التي كانت تتطلع إليها الملائكة، فيستعيذ بربه من ذلك الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

وهكذا يظل الإنسان بين الكر والفر، تارة ينتصر على الشيطان وتارة يهزم أمامه، فإذا ما تغلبت طبيعته النورانية الروحانية واهتدى كان من المنصورين، وبذلك يدحض حجج الشيطان وتتمشى فيه روح الجندي لله، ويستل سيوف النصر لله فوق هامات أعداء الله (إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ).

وإن تغلبت على الإنسان حيوانيته وجذبته الأرض إليها وزين له حب الشهوات، سار مع الشيطان في غوايته، في تلك الحالة كان من المنهزمين، وبذلك يكون خصيمًا لرب العالمين، ويخضع الخضوع الكلي للشيطان،

ويحق عليه أن يوصف بصفات ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم، وبذلك تكون قد تخلت عنه اللطيفة الربانية وتطلق عليه هذه الصفات:

(وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً) سورة الإسراء آية ١١. (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ الإنسِ والْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا) سورة الأنعام آية ١١٢.

(إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) سورة هود ٩.

(إنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وإذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا) سورة المعراج الآيات ١٩، ٢١.

(إنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) سورة إبراهيم آية ٣٤.

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً) سورة الأحزاب آية ٧٢.

(وكَانَ الإنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) سورة الكهف آية ٥٤.

(إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) سورة العلق آية ٦، ٧.

(إنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وإنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ..) سورة العاديات الآيات ٦، ٧، ٨.

(إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) سورة العصر آية ٢.

(بَلْ يُرِيدُ الإنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) سورة القيامة آية ٥.

(وكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا) سورة الإسراء آية ١٠٠.

(وخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا) سورة النساء آية ٣٨.

وسواء كان الإنسان متبعاً لطبيعته الإلهية أو طبيعته الحيوانية، فهو في الإسلام حر مكلف يستطيع أن يصعد إلى قمة المجد الذي هيأه له ربه. وبهذا التكليف يكون الإنسان قد كرمه ربه حيث جعله مخيرًا فيما يذهب إليه، فقد حمل ما عجزت عن حمله كل من السماوات، والأرض، والجبال (إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجْبَالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنسَانُ). سورة الأحزاب آية ٧٢.

وذلك بعد أن بين الله الخير والشر للإنسان وكمله بالإمكانيات وأحسن خلقه.

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ولِسَانًا وشَفَتَيْنِ وهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ) سورة البلد الآيات ٨-١١.

وبذلك كان الإنسان حرًا فيما يختاره لنفسه جنة أو نارًا، تكريمًا أو إهانة (بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) سورة القيامة آية ١٤.

فهو محاسب عما كلف به.

(يُنَبَّأُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وأَخَّرَ) سورة القيامة آية ١٣.

(وكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) سورة الإسراء آية ١٣.

كما بين القرآن أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنه ليس ضحية لخطيئة موروثة أو جريرة جناها أبوه أو جده.

(ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) سورة فاطر آية ١٧.

ذلك هو الإنسان في الإسلام، ولم يتركه الإسلام وشأنه، بل أعده إعدادًا كاملاً لتحمل المسئولية، وتأدية الرسالة، وحمل الأمانة، فقد كفل الله له من العلم وتهيئة أسباب الحياة، وتنظيم حياته فردًا وجماعة، وحيدًا وفي أسرة، في عشيرته أو دولته، في وطنه أو مع أوطان أخرى، ميسرًا لما خلق له، وذلك ما سنفصله فيما يلي من هذا الكتاب.

الفصل الثالث

الإنسان في مدرسة الإسلام

كما يدخل الطفل المدرسة ليتخرج رجل المستقبل، كذلك جعل الإسلام للإنسان مدرسة يخرج منها إنسانًا صالحًا قادرًا على تحمل ما كلف به من أمانة ناءت بحملها السماوات، والأرض، والجبال. ومنهاج هذه المدرسة كتاب أنزله الله تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وسنة عن النبي مُحَمَّد ﷺ الذي قيل من لدن الرحمن في حقه قوله: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى) سورة النجم الآيات ٣، ٥.

لقد اهتمت هذه المدرسة بالإنسان اهتمامًا بالغًا أدى بالمسلم أن يكون بالنسبة لغيره من بني الإنسان عضوًا عاملاً منتجًا، عليه من الواجبات مثل ما له من الحقوق، ما لم يشرف به غيره من أتباع الديانات الأخرى.

بذلك كان المسلم في عمله هادفًا وفي رسالته مصيبًا لمرمى، بما نتج عنه سيادته للعالم؛ فقد أتى حين من الدهر ساد فيه العلم العالم وارتفعت راية الإسلام خفاقة على ربوع الأرض؛ وذلك يوم أن تمسك السلف

الصالح من المسلمين بمنهاج المدرسة الإسلامية وطبقوه عملاً عن علم وإخلاص، وعن عقيدة وتضحية وليدة الحب الإلهي الذي يدفع الإنسان بقوة لا تعدلها قوة، فتتفتح له الآفاق وتتحطم أمامه الحواجز. ذلك كله يوم أن كان المسلمون صفًا واحدًا، يوم أن كان (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) سورة الفتح آية ٢٩.

وإذا كان المسلمون في وقتنا الحاضر قد نزلوا من مراتبهم ورجعوا القهقري، فذلك راجع لإهمالهم منهاجهم، ولعدم تمسكهم بما أوجبه عليهم ربهم ونبيهم.

وإذا كان بعضهم ينسب العيب للإسلام، فهذا محض افتراء، فليس للإسلام من ذنب؛ فالعيب عيب المسلمين الذين تركوا جوهرهم وتمسكوا بعرض غيرهم فكان وبالا عليهم، وأصبحوا مسودين بعد أن كانوا سادة، وهذا مآل من يجرى وراء العرض الزائل ويتخذ من أعداء الله بطانة له، فلا يألونه إلا خبالاً.

وهدف المدرسة الإسلامية أن تخرج الإنسان الذي يسود نفسه، ويكسر شهوته، ويتحكم في نزواته ولذائذه، ويتمسك بكرامته وعزته، ويعرف ما أراده الله له في قوله عز وجل: (ولِلَّهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ) سورة المنافقون آية ٨. (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) سورة البقرة آية ١٤٣. وبذلك يستطيع في ظل تلك التربية الداعية إلى قوة الإرادة التغلب على أعدائه،

وبذلك تعود راية الإسلام للارتفاع فوق كل البقاع بفضل التربية الربانية والمنهاج الإلهي.

فأول الدروس التي يتلقاها المؤمن بالمدرسة الإسلامية أن يكون مؤمنًا بالغيب، مؤمنًا بما أنزل على مُحَمَّد ﷺ، وما أنزل على الرسل من قبله، مبرهنًا على إيمانه بأعمال يؤديها فيها الخير كله لنفسه ولغيره، فإذا ما أداها كان من المتقين وكان على هدى من ربه، وبذلك يدخل في عداد المفلحين، وذلك ما ورد في سورة البقرة آية ١-٥: (ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

ثم تتوالى الدروس كلها، تقويم للإنسان الذي يتعلم منها المجاهرة بالحق، وإبداء الرأي في شجاعة أدبية لا يخاف لومة لائم، ولو كان ذلك الحق فيه هزيمة لنفسه ونصرة لعدوه، متتبعًا الأمر الصادر له في سورة البقرة آية ٤٢: (وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ). وكذلك يتلو بما ورد في سورة النساء آية ١٣٥ من أمر الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ). ثم يأتمر في سورة المائدة آية ٨: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

والإنسان الذي أخرجته معصيته من الجنة لعدم وفائه بما التزم به وهو عدم أكله من الشجرة المحرمة عليه، لا يصح أن يترك في أغلال الخطيئة، بل يجب أن يخرج منها بالتوبة والوفاء للعهد؛ وذلك بدروس يتلقاها في مدرسة القرآن حتى لا يتعرض للتجربة مرة أخرى. وبذلك يطلق على المتحررين من ربقة الحنث بالوعود والعهود لقب الموفين بعهدهم إذا عاهدوا، وذلك بفضل ما تلقوه من أمر (وأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) سورة الإسراء آية ٣٤

ومهما كلف الإنسان الوفاء بالعهد فإنه يلتزم به، لأنه يؤمن أن نتيجة ذلك هو الفوز العظيم، كما قرأ في منهاج ربه (إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وعْدًا عَلَيْهِ حَقًا فِي التَّوْرَاةِ والإنجِيلِ والْقُرْآنِ ومَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ) سورة التوبة آية ١١١. والوفاء بالعهد صفة ملازمة لصفة الصبر؛ وذلك لما ورد في قوله الله تعالى: (والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ) سورة البقرة آية ١٧٧.

ولما كانت العقود عهودًا، والتعاقد بين الناس عهدًا، ولما كان الإيمان بالله ميثاقًا بين العبد وربه يفرض على العبد تأدية العبادات والعمل بالأوامر والابتعاد عن النواهي، فقد أرادت عناية الله ألا تهمل العقود أو المواثيق، سواء كانت بين العبد وغيره من بني الإنسان، أو كانت بينه وبين الرحمن.

فقد أشار إليها عز وجل في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) – (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ولا يَنقُضُونَ المِيثَاقَ والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ويَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ويَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وجْهِ رَبِّهِمْ وأَقَامُوا الصَّلاةَ وأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وعَلانِيَةً ويَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) سورة الرعد من ٢٠–٢٢.

ولا يستطيع الإنسان الوفاء بالعهد ولا يمكن أن يطلق عليه لقب المؤمن إلا بالامتحان، والتجربة، والابتلاء. وجواز النجاح في الامتحان هو الصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء؛ ولذا قال تبارك وتعالى في أول سورة العنكبوت: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ). وفي سورة البقرة ضرب الله على الوتر الحساس من الإنسان وجعل الامتحان فيما يحافظ عليه المرء ويتكالب في جمعه والمحافظة عليه بكل ما أوتي من قوة وجهد، فقد قال الله تبارك وتعالى: (ولَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ والْجُوعِ ونَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ والأَنفُسِ والثَّمَرَاتِ وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) البقرة آية ١٥٥.

كما يدرس الإنسان في رسالة محمَّد عليه الصلاة والسلام، وفي الكتاب الذي أنزله الله على ذلك النبي الوسائل التي تساعده على الصمود أمام تلك التجارب والنجاة من الفتنة؛ فيقرأ في الدستور الجامع منهاج رب العالمين القرآن الكريم (واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ). ثم يريد الله بهذا الإنسان خيرًا فيقص قصص مَن مسهم بالبأساء والضراء من قبل فصبروا وصابروا وبذلك نصرهم الله: (مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ

البَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) البقرة ٢١٤.

وأن وَصف الله سبحانه لهؤلاء الذين ذكرتهم الآية السابقة لخير وصف لقوم ورد عنهم في قوله تبارك وتعالى: (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وقِنَا عَذَابَ النَّارِ) ذلك الوصف الذي وصف الله به أولئك الذين رضى الله عنهم، فذكر لهم الصفات الآتية في قوله تبارك وتعالى: (الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ والْقَانِتِينَ والْمُنفِقِينَ والْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) سورة آل عمران آية ١٧. الذين جمعوا بين أيديهم نعيم الدنيا وعز الآخرة، حتى وصفهم الله وخبر عنهم في كتابه الكريم: (ومِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ).

والعلم الذي يتلقاه الإنسان في مدرسة الإسلام الكبرى ليس مجرد علم يتعلمه ليحفظه في صدره، كما أن الأوامر والنواهي ليست مجرد قوانين ولا يسأل عنها الإنسان، بل أمر الإنسان أن يطبق علمه في حياته العملية؛ وذلك بأمر من الله الذي جعل الرقابة من جانبه سبحانه والرقابة من جانب الرسول والمؤمنين، فقد أمر عز وجل: (وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُهُ والْمُؤْمِنُونَ)، فإن عمل بما علم وأطاع الله ورسوله، دخل في مصاف الذين أنزل الله في حقهم الآيات (ومَن يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا).

وكل إنسان لا يجهل مقر هؤلاء الذين ذكرتهم الآية الكريمة، فقد قرأ كل مسلم: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) سورة البقرة آية ٢٥- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)- (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤْلُؤًا ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) سورة فاطر آية ٣٣-٣٥، (والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) - (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ورِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ واللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) سورة آل عمران آية ١٥.

وإذا أصاب الإنسان فتور أو تواني عن العمل، فأمامه النداء من الله عز وجل الذي يفتح يده بالليل ليقبل مسيء النهار، ويفتح يده في النهار ليقبل مسيء الليل، والنداء يقول: (وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ). وهؤلاء المتقون عرفهم ربهم بقوله: (الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والْكَاظِمِينَ الغَيْظَ والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ).

وقد أعقب النداء سبحانه وتعالى للذين فعلوا الفواحش يطمئنهم: (والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ومَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ولَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمُونَ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ونِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ) سورة آل عمران الآية ١٣٦.

وإذا كانت الآيات السابقة طلبت من الإنسان أن يسارع إلى المغفرة، فقطار المغفرة هو الاستغفار، وأن رحمة الله بعباده جعلت من الاستغفار متاعًا في الدنيا والآخرة. ودليلنا على ذلك ما ورد في قول الله عز وجل على لسان نوح عليه السلام لقومه: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ويُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وبَنِينَ ويَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ويَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا) سورة نوح الآيات ١٠–١٢.

وفي العمل للخير قد حث رسول الله ﷺ الإنسان بأحاديثه، فقد روى عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: (يا ابن آدم أنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك) رواه مسلم والترمذي. وعن بلال رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما رزقت فلا تخبأ، وما سئلت فلا تمنع. فقلت يا رسول الله وكيف لي بذلك؟ قال: هو ذاك أو النار). وخلاصة تعاليم الإسلام أدب، وأخلاق، وتعاون، وتعارف، لا فرق بين ذكر وأنثى، ففي الناحية الدينية والروحية يتساويان: (ومَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ ولا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) سورة النساء آية ١٢٤.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ولَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) سورة النحل آية ٩٧.

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ) سورة آل عمران آية ١٩٥.

ومن الأدب القرآني ينهل الإنسان نهلاً عذبًا يحدد له احترام الحرمات وأدب العلاقة بينه وبين غيره من البشر حتى يكون إنسانًا كاملاً يستحق ما توج به من لطيفة ربانية، وأن التعاليم والأوامر التي وردت في سورة النور لكفيلة بأن تخلق فردًا صالحًا يكون نواة صالحة لأسرة تكون أساسًا لمجتمع صالح. فقد ورد في قول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ومَا تَكْتُمُونَ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ويَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ولا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ

وتُوبُوا إلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) سورة النور الآيات ٢٧-٣١.

إذن ما سردنا من أمثلة على سبيل المثال في التهذيب الروحي للإنسان يثبت بلا مجال للشك أن الإنسان خلق لرسالة وحمل أمانة، وعليه أن يجاهد حتى يطبق علمه في حياته، ويترجم علمه عملاً. وقد أحاط الله الإنسان علمًا بأنه إن لم يطبق ما تعلمه في حياته ولم يعمل بما أمر، فقد أنزل له مع الترغيب وعيدًا، ومع البشرى نذيراً، ومع الوعد تهديداً جزاء ما فرط ولم ينتفع بما تعلم فدخل في زمرة الذين يقولون مالا يفعلون، وقيل له من لدن العزيز الحكيم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا) ثم يسمع خطاب الله له (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) وإن شاء فليتل (واتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ولا هُمْ يُنصَرُونَ) البقرة آية ٤٨.

(يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

كل هذا ذكر من الله عز وجل ضمنه كتابًا لا ريب فيه هدى للمتقين، والإنسان حر فيما يختاره لنفسه، فهو يسمع قول الله عز وجل: (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ونَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَافَتُونَ

بَيْنَهُمْ إن لَّبِثْتُمْ إلاَّ عَشْرًا نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إن لَّبِثْتُمْ إلاَّ يَوْمًا)، سورة طه الآيات ٩٩-١٠٤.

إذن فالإنسان رهين بما كسبت يداه سيحاسب في يوم يؤمن أنه لابد آت: (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْسًا يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ورَضِيَ لَهُ قَوْلاً يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ وقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ومَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا ولا هَضْمًا). سورة طه الآيات ١٠٨-١١٢.

ولقد كان الإنذار من الله عز وجل لآدم عندما أخرجه من الجنة تحصينًا وتعليمًا، كما أن فيه البلاغ المبين.

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ومَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى وكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ولَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى) سورة طه الآيات من ١٢٣-١٢٨.

والإسلام بمدرسته هذه اشترط في المسلم شروطًا صادقة وإيمانًا يترجمه العمل، ومرآة إيمان المرء عدة صفات تظهر المؤمن على حقيقتهح فالتواضع مع العزة والكرم مع الإقساط والعدل، والطهر مع العفة ونقاء

الطوية مع الفطنة، والتوبة الصادقة مع الحرص مع الزلل، والخوف من الله مع عدم التهاون في الأخذ من حدود الله مأخذ الهزو، والعفو عن الإساءة الشخصية مع العمل بقول رسول الله ﷺ: (لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها). كل هذه صفات تظهر المؤمن بمظهره الذي يجب أن يكون عليه، وبذلك يكون المؤمن قد انطبق عليه قول الله تبارك وتعالى في سورة الفرقان:

(وعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) والَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وقِيَامًا والَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًا ومُقَامًا والَّذِينَ إذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا والَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ ولا يَزْنُونَ ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ ويَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إلاَّ مَن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ومَن تَابَ وعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إلَى اللَّهِ مَتَابًا والَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا والَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًا وعُمْيَانًا والَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إمَامًا أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ويُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وسَلامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًا ومُقَامًا).
سورة الفرقان الآيات ٦٣-٧٦.

وبهذه الأمثلة وبتلك التعاليم التي عنى الإسلام أن يلقنها للفرد يخرج المسلم وقد حمل معه شهادة من الله ورسوله تشهد أنه فرد صالح، والفرد نواة المجتمع الأولى، حيث أن من الفرد تتكون الأسرة، والأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع.

وأن تهيئة الفرد لهي تهيئته للمجتمع كله؛ ولذلك عرضنا في بحثنا هذه العجالة التي عنونّاها بمدرسة الإسلام، لنبين عناية الإسلام بتهذيب الفرد، وسنتبع هذا البحث بفصول تبحث مدى تهيئة الإسلام لأسباب الحياة للإنسان، ثم ندخل في موقف الإنسان من المجتمع وموقف المجتمع من الإنسان؛ أي نوضح موقف الإسلام من الإنسان والإنسانية.

الفصل الرابع

تهيئة أسباب الحياة للإنسان

الباحث في الدين الإسلامي والمتعمق فيه، بعد أن يعرف سبب خلق الإنسان، وطبيعة خلقه التي كانت مزاجًا من توأمين، الأول اللطيفة الإلهية الروحية؛ وهذه وظيفتها النزوع إلى الله عز وجل والعبادة له. والثاني طبيعة أرضية عملها جذب الإنسان إلى الأرض وحب الخلود فيها، وقد بينا في الفصول السابقة أن الإنسان خلق لعمارة الأرض.

يجد الإسلام قد خرج بالإنسان من القيود والأغلال التي طوقت جيده زمنًا طويلاً، آخره عهد الكنيسة التي أبقت السلطة في يدها. ولقد كانت سلطتها مقدسة تملك رقاب الناس في الدنيا وفي الآخرة، حيث ظلت تبيع صكوك الغفران وتصدر قرارات الحرمان، حتى جرها ذلك إلى مقاومة ومناهضة الأفكار الحرة، التي تتعارض مع نظريات الرق والاستعباد الديني، مما نتج عنه وجود طوائف من العلماء والمفكرين تحتقر الكنيسة ولا تعترف برجال الدين. وكان عمل هذه الطوائف مناهضة الكنيسة ورجالها مما جعلهم في مهب الريح كريشة لا تملك لنفسها أمرًا ولا تستطيع أن يكون لها مستقر.

ولما جاء الإسلام بقواعده الثابتة أظهر وظيفة الإنسان، وجعلها واضحة المعالم في شعائره ونظمه التي وقفت بين الروح، والمادة، والعبادة، والعمل؛ فلا عزلة للجانب التعبدي عن الجانب الدنيوي لذلك الإنسان، بل وضعت العبادة والعمل في كفة واحدة من الميزان، حيث جعل الإسلام العبادة عملاً والعمل عبادة. وخير دليل على ذلك أمر الله في القرآن الكريم في سورة الجمعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) سورة الجمعة الآيتان ٩، ١٠.

إذًا لم يخلق الإنسان عبثًا، ولم يخلقه الله ليكون من الساجدين المسبحين فقط، أو يكون من العاكفين في ركن من أركان المسجد، أو مترهبًا في دير، أو سجينًا في صومعة. فقد كان الله في غنى من عبادة ذلك الإنسان المتكاسل، لأن الملائكة وكل شيء خلقه الله يسبحه ويذكره، فكانت للملائكة وظيفة واحدة وهي العبادة فقط، ولكن الإنسان كانت له وظيفة أخرى بجانب وظيفة العبادة وهي العمل على عمارة الأرض؛ لكي تظهر نعمة الله ظاهرة وباطنة. وقد جاء في سورة الكهف في آية ٨٤ قول الله تبارك وتعالى: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا).

بل خلق الإنسان ليسبح ويعمر، ويسجد ويشيد، ويركع ويزرع، ويصوم ويروي، ويحج ويتاجر، ويستمتع بحياته الدنيا استرواحًا منه واستمتاعًا بنسمات الآخرة.

ولم يهبط الإنسان من الجنة إلى الأرض ليكون متكلاً عليها يعيش كالسائمة دون أن يفلح تلك الأرض فيخرج من بطونها آلاء الله ونعمه. ولو تتبعنا ما جاء في سورة الحج لعرفنا كيف خلق الله الإنسان: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) سورة الحج آية ٥.

إذن هبوط الإنسان إلى الأرض بعد غفران الله له كان بعد غواية الشيطان، وبذلك عرف الإنسان أنه عدو لدود عليه أن يصارعه حتى يصرعه، فنشأت عنده شهوة الصراع، والصراع يحتاج إلى القوة، والعمل من أسباب القوة. وقد أيد ذلك قول الله عز شأنه في سورة الحج آية ٤٠: (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا).

والإسلام بعد كل عمل يعد ذلك العمل سواء كان لصالح الفرد أو الجماعة من شعائر الدين، فقد ورد عن رسول الله ﷺ حديثًا رواه الشيخان والترمذي والنسائي: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار).

ولو تتبعت حياة النبي ﷺ مع أصحابه، ودرست سنته التي خلفها من بعده، لرأيت رسول الله ﷺ يتبع العلم العمل، أو يجعل من العمل علمًا. فقد أخرج الستة الرواة للحديث عن أنس رضى الله عنه قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في سفره، فمنا الصائم ومنا المفطر. قال: فنزلنا في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، فمنا من يتقى الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقطوا الركاب، فقال الرسول ﷺ: (ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله).

وإني دائمًا لأتخذ من حادثة لثلاثة جاءوا رسول الله ﷺ نبراساً في حياتي، وقانونًا من القوانين التي عجز المقننون على اختلاف نزعاتهم وفي مختلف العصور والأزمان من أن يبلغوا ما بلغته كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكمة وبلاغة وإصابة مرمى.

فقد روى الشيخان والنسائي عن أنس ﷺ أنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها. قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: وأنا اصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: وأنا اعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، وأما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له، ولكني أصوم، وأفطر، وأصلي، وأرقد، وأتزوج النساء، من رغب عن سنتي فليس مني).

ومن هذه التعاليم وبهذه الروح كان الإنسان في الإسلام مطالباً بالعمل المبنى على التفكير والتأمل، فلم يعتمد على خوارق الأمور وبواطن الغيبيات. فقد ورد في القرآن الكريم ما ضرب الله من أمثلة تدعو الإنسان للتبحر والتعلم بانيًا ذلك على التفكر والتأمل. قال الله تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَيْلِ والنَّهَارِ والْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ومَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) سورة البقرة آية ١٦٤.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وقُعُودًا وعَلَى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) سورة آل عمران آية ١٩٠، ١٩١.

(ولَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ومَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ومَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ومَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) سورة الحجر الآيات ١٦-٢٢.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْهَارًا ومِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وزَرْعٌ ونَخِيلٌ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ واحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) سورة الرعد، الآيتان ٣، ٤. (أَلَمْ يَرَوْا إلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللَّهُ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) سورة النحل آية ٧٩.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ويُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ ويَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ إنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ) سورة النور، آية ٤٣.

وبعد دور التفكير والتأمل يخرج الإنسان من دائرة التهيئة والتصميم والرسم إلى دور التنفيذ، وذلك ناشئ عن قول الله عز وجل في سورة الأعراف آية ١٠.

(ولَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)، ثم يستمر الإنسان في عمله لا يتخلى عن إيمانه، ينفذ مشيئة الله في البحث عن قوْتِه الذي ضمنه الله له في قوله تبارك وتعالى: (امْشُوا فِي

مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وإلَيْهِ النُّشُورُ). وضمان آخر: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)، مع شرط العمل والبحث إيمانًا من الإنسان أن الله مربي غذاءه، فهو يفلح الأرض والله (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً).

ثم يبدأ الإنسان في تقليب أرضه وحرثها وبذر البذور فيها، ثم يأتي دور الري والإنبات في سورة البقرة آية ٢٢: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ). وقدرة الله تبارك وتعالى تتجلى فيما أورده في كتابه الكريم الذي لم يفرط فيه من شيء، ولنضرب أمثله من قول الرحمن:

(إنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا والشَّمْسَ والْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ومِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إلَى ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ ويَنْعِهِ إنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) سورة الأنعام الآيات من ٩٤-٩٩.

(وهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ) سورة الأنعام آية ١٤١.

(وهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإذْنِ رَبِّهِ والَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) سورة الأعراف الآيتان ٥٧–٥٨.

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ) سورة الرعد آية ١٧.

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ومِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ والأَعْنَابَ ومِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ومَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) سورة النحل آية ١٣.

(وأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وإنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ

ومِنْهَا تَأْكُلُونَ وشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ) سورة المؤمنون آية ٢٠.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) سورة النمل آية ٦٠.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) سورة يس آية ٨٠.

وعمل الإنسان بالزراعة يحتم عليه أن يعمل على إيجاد مسكن له يقيه الحر والبرد ويتخذه مخزنًا، لحصاده فألهمه الله فن البناء والعمارة.

(واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ومِنْ أَصْوَافِهَا وأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثَاثًا ومَتَاعًا إِلَى حِينٍ واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا) سورة النحل آية ٨٠.

(واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وحْدَهُ ونَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرِينَ فَأَنجَيْنَاهُ والَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ

مِّنَّا وقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ومَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ولا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) سورة الأعراف آية ٧٤.

(لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ومَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ولِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وزُخْرُفًا وإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) سورة الزخرف آية ٣٥.

ثم احتاج الإنسان عند اكتشافه الزراعة إلى تنظيمها، وترتيب مواسم الزراعة والحصاد؛ فعلمه الله عدد السنين والحساب لكي يتمكن من ضبط أوقاته سواء في العمل أو العبادة.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحَجِّ) سورة البقرة آية ١٨٩

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ومَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) سورة يونس الآيتان ٥، ٦.

(إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ) سورة التوبة آية ٢٦.

(وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ وكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) سورة الإسراء آية ١٢.

ومن رحمة الله على عباده ولطفه بهم نظم لهم العمل والراحة، فقال: (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا) سورة الأنعام آية ٩٦.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهَارَ مُبْصِرًا إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) سورة يونس آية ٦٧.

(وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا والنَّوْمَ سُبَاتًا وجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) سورة الفرقان آية ٤٧.

(وجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) سورة النبأ الآيات ٩–١١.

والزراعة والحصاد يحتاجان إلى الآلات الزراعية، مما أوجب على الإنسان أمام إلحاح الحاجة إلى التفنن والاختراع وصنع آلاته؛ كالفأس والمحراث وغيرها. ثم تطورت صناعاته، فكان في احتياج إلى ما يجر المحراث وينقل محاصيله، فاستأنس بعض الحيوانات التي سخرها الله لخدمته.

وهنا يتجلى تكريم الخالق للمخلوق واضحًا في آياته وآلائه سبحانه وتعالى الذي فصل كل شيء فأحسن تفصيله؛ حيث جعل في الأنعام منافع كثيرة وفوائد جمة للإنسان، وذلك ظاهر في أدق القول قول الله عز وجل الذي أبان لنا قدرة الله التي أخرجت لنا لبنًا سائغًا من بين فرث ودم، وشهدًا فيه شفاء للناس من بطن حشرة صغيرة، وجعل لنا مما أفاء علينا من الفواكه سكرًا ورزقًا حسنًا وإليك بيان العزيز الحكيم...

(والأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ومَنَافِعُ ومِنْهَا تَأْكُلُونَ ولَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ وتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً ويَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) سورة النحل الآيات ٥-٨.

(وإنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ومِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ورِزْقًا حَسَنًا إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وأَوْحَى رَبُّكَ إلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) سورة النحل الآيات ٦٦-٦٩.

ثم قامت الصناعات التي تناسب تطورات الزمن واحتياجات الإنسان، فاتجه الإنسان إلى الصناعات الجلدية والصناعات الناشئة على

عظام الأنعام. كما قامت صناعات الغزل، والنسيج، والملابس، والخيام على مخلفات تلك الأنعام.

(وجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ومِنْ أَصْوَافِهَا وأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثَاثًا ومَتَاعًا إِلَى حِينٍ واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا وجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) سورة النحل الآيتان ٨٠، ٨١.

ولم تكن الصناعات التي قامت على الزراعة ومخلفات الحيوان تتفق وتطور المدنية الإنسانية؛ فاكتشف الإنسان الحديد في باطن الأرض، كما اكتشف غيره من المعادن، ومن هنا تعلم الصناعات المعدنية وأدخلها في حياته، ثم تطورت الصناعات المعدنية فتحسنت فكانت أداة الإنسان في سلمه وحربه.

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) سورة الكهف ٩٥-٩٦.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ

وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) سورة سبأ آية ١٠-١٢.

وبالاستمرار في الآية السابقة نجد فضل الله على الإنسان حيث علمه مما يشاء ما لم يكن يعلم:

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) سورة سبأ آية ١٣.

وعلى الصناعات الحديدية وبواسطة ما اكتشفه الإنسان من معادن أخرى، ووجود التبرول في باطن الأرض اخترع الإنسان السيارات، والدبابات، والمصفحات، والأسلحة، وذلك ظاهر في قول الله عز وجل:

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) سورة العاديات من ١-٥.

ثم وجه الله الإنسان إلى تسخير البحار والأنهار، وجعل له فيها منافع جمة يستخرج منها لحمًا طريًا، ولؤلؤًا، ومرجانًا، وأحجارًا كريمة يتخذها زينة ومتاعًا. يرتوي من عذب النهر ويستخرج من البحر الملح، ويسخر صفة كل منهما لفلكه وسفنه التي تحمل تجارته وتكون وسائل النقل والتنقل والسفر؛ مما ساعد على تقدم الإنسان على مر الزمن، وأن المواخر التي تمخر عباب البحار والأنهار والتي قربت البعيد من البلدان ووصلت

القارات ببعضها والأقطار لخير دليل على فضل الله على عباده، وإنا لنسوق الآيات على سبيل المثال اعترافًا بفضل الله عز وجل:

(وأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ) سورة الأنعام آية ٦. (وهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًا وتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة النحل آية ١٤.

(وهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وحِجْرًا مَّحْجُورًا) سورة الفرقان آية ٥٣.

(أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهارًا وجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) سورة النمل آية ٦١.

(ومَا يَسْتَوِي البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ومِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًا وتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة فاطر آية ١٢.

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة الجاثية آية ١٢.

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) سورة الذاريات الآيات من ١-٤.

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ) سورة المائدة آية ٩٦.

والأرض وما حوت من جبال وجنات معروشات ومعادن في بطنها، والبحار بما فيها من لآلئ وثمين الأحجار، وما عليها من مواخر وبواخر وفلك تجرى بأمر الله، والأنهار وما تحوى من ماء عذب فرات، ولحمًا طريًا، وما يجري على صفحاتها من ذوات الشراع والأنعام والدواب. كل ذلك أصبح ضئيلاً أمام مطامع الإنسان واحتياجاته ومدنيته، فاتجه إلى السماء يكشف مكنوناتها، ويكتشف أسراها، ويستطلع أخبارها، فسخرها لمطالبة، ولم يكن ذلك إلا بوحي من الله العلي الكبير.

وباكتشاف الإنسان أسرار السماء، وإطلاعه على ما لم يعلم من قبل صنع الطائرة والمنطاد التي اكتشفت بقاعًا في الأرض، لم يكن قد وصل إليها من قبل ووفرت الزمن فقربت البعيد ووصلت بين الأمم. ثم اكتشف القوة الطاردة والقوة الجاذبة فأدخلها في علومه، ومنها عرف السالب والموجب، ثم توصل إلى الذرة ودرس الهواء والأجواء، وجاب الفضاء. وما زال ولا يزال يكتشف ويخترع ويجدد، وفي كل يوم تظهر له آفاق جديدة من العلوم والمعارف، حتى سخر موجات الأثير فاخترع الاتصال السلكي واللاسلكي.

ولو تحققنا، ودققنا، ومحصنا النظر وسرحنا بالفكر لوجدنا أن ذلك كله بفضل ما أوحى الله لأنبيائه، وما صنع الله من معجزات على أيدي هؤلاء الأنبياء، وكل ذلك كان تعليمًا للإنسان وتوجيهًا.

فلو نظرنا مثلاً إلى سورة الجن لوجدنا من آيات الله عجبًا، فقد أوحت تلك الآيات المبينات إلى الإنسان بصورة رائعة من الاتصال الهوائي (اللاسلكي)، وقد ضرب الله مثلاً فكان أصدق مثلاً. فقد جاء على لسان الجن عندما أوحي إلى النبي ﷺ: (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا وشهبًا، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا). وفي سورة الحجر جاء قوله تعالى: (إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ).

وما وحي السماء إلى الأرض إلا قدرة للرحمن عز وجل جعلها لعباده مليئة بالدروس التي توجههم إلى التفكر والتطلع اللذين تعقبهما النتيجة، وما النتيجة إلا عمل، وما نزول جبريل إلى الأرض بالوحي على النبي إلا درس السماء إلى الأرض: (وإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) سورة النمل آية ٦.

وإسراء النبي مُحَمَّد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى آية من الله، توجه الإنسان إلى أن يبحث عن السرعة. ولعل الدرس الوحيد في حادثة الإسراء هو الدليل على أن هناك في علم الله سرعة تفوق النفاثة، بل سرعة الصوت.

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) سورة الإسراء آية ١.

وعروج النبي ﷺ إلى السماء وكونه قاب قوسين أو أدنى، ودنوه وتدليه ليعجز المخترعين عن الوصول إلى المكان الذي وصلى صلوات الله عليه إليه (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ومَا غَوَى ومَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىَ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ المُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ البَصَرُ ومَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى) سورة النجم الآيات من ١-١٨.

وقصة الإسراء والمعراج تتضمن حسبما روت زوجة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يبيت عندها ليلتئذ: أنه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماء، ونزل وصلى بالأنبياء ورجع إلى مكانه ولا يزال مكانه دافئًا.

فأين (جاجارين، وتوتوف) الروسيان، وألن شبرد وجفن الأمريكيان الذين جابوا الفضاء من النبي ﷺ، ومن حادثة الإسراء والمعراج؟ وأين سفن الفضاء التي أنفقت كل ما عند الإنسان من فن واختراع من البراق والمعراج؟ فإن من سفه القول أن يقول الإنسان الحديث أنه قد فاق في اختراعه قدرة الله، وأن تلك الحوادث والمعجزات لهي دليل قاطع وبرهان ساطع يقومان على تحطيم قول الملحدين وتسفيه آرائهم ومعتقداتهم.

ولن ينحني مخترعو سفن الفضاء أمام البراق والمعراج فحسب، بل يجب عليهم أن يحنوا الرؤوس أمام قصة سليمان عليه السلام، والهدهد، وعفريت الجن وملكة سبأ، لأننا رأينا أن تلك المخترعات عجزت أن تصل بسرعة طيرانها إلى السرعة التي أحضرت بها ملكة سبأ بين يدي سليمان عليه السلام. ونترك القرآن الكريم يقص علينا القصص في قول الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وكِتَابٍ مُّبِينٍ هُدًى وبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ وهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ وإنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ إذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ومَنْ حَوْلَهَا وسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ يَا مُوسَى إنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ وأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ولَّى مُدْبِرًا ولَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُونَ إلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ وأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إلَى فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ولَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عِلْمًا وقَالا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ ووَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ وحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ

جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وجُنُودُهُ وهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى والِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ولَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وجَدتُّهَا وقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ويَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ ومَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ والأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ولَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وهُمْ صَاغِرُونَ قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ومَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ومَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ). سورة النمل الآيات من ١–٤٠.

إن القصص القرآني قد صور في بلاغة ما كان بين سليمان والهدد، وسرعة وصول الخطاب وسرعة الرجوع بالهدية. وأعجز ما قص علينا القرآن المنافسة بين السرعة التي حددها عفريت الجن الذي أخذ على نفسه إحضار عرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه، والسرعة التي حددها الذي عنده علم من الكتاب الذي جاء بالعرش بين يدي سليمان قبل أن يرتد طرفه. وأن ذلك ليلجم الذين قالوا إنا ردنا الفضاء فكنا أسرع، وجبنا السماء فكنا أرفع، وأن إعجاز تلك القصة لهم لأوقع، فمن ينكر قدرة الله فليعلم أنه عنده من الجن والأنس ما هو قائم بأمره ولأمره، والله غني عن العالمين.

ولم يكن اتجاه الإنسان إلى السماء عفوًا أو بطريق الصدفة، إنما كان ذلك توجيهًا من الله الذي سخر السماوات والأرض للإنسان، والذي عرف ذلك الإنسان بالسماء في محكم آياته وهو العليم الحكيم الذي أمر عباده بالتفكر والتدبر في السموات والأرض؛ ذلك أنه ذكر السماوات قبل الأرض في أكثر الآيات، وذلك لقوله:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ). سورة آل عمران ١٩٠.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ) سورة الأنعام آية ١.

(فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ) سورة الأنعام آية ٣٥.

(خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ويُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ). سورة الزمر آية ٥.

(والسَّمَاءَ رَفَعَهَا ووَضَعَ المِيزَانَ) سورة الرحمن آية ٧.

(بُرُوجًا وزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ). سورة الحجر الآيتان ١٦، ١٧.

(أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) سورة الأنبياء آية ٣٠.

واتجاه الإنسان إلى السماء جره إلى دراسة بروجها وما زينها به الله من شمس وقمر، فربط حياته بالأفلاك، والكواكب، والنجوم، والشمس، والقمر، وهن اللائي جعلهن الله للإنسان مسخرات. فقد عرف أن الشمس التي تمده بالنور نهارًا والدفء والحرارة، كما تمده بالفيتامينات

والأشعة اللازمة لحياته، كذلك تمد زرعه وضرعه بالفيتامينات والكلوروفيل الذي يعد عاملاً من عوامل إنماء زرعه؛ حيث يكون هناك التمثيل الضوئي (الكلوروفيلي). وكذلك عرف الإنسان النجوم التي اهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ومنها تعلم اختراع البوصلة البرية، والبحرية. ومن اختراع البوصلة والنجوم درس التقلبات الجوية، فتعلم فن الأرصاد. ثم حاول وفكر في الصعود إلى القمر وتسخيره لأمره، كما سخر الأرض، وأن صناعة الأقمار الصناعية واختراع الصواريخ لكفيل أن يرينا كيف يفكر الإنسان في اختراق السماء والخوض في غمارها، وأمله في الوصول إلى المريخ لكي يكتشف ويستطلع ما خفي عليه. والله الذي وهب الإنسان العقل المفكر واللطيفة المدبرة بفضل نعمه.

(والشَّمْسَ والْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سورة الأنعام آية ٩٧.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ) سورة يونس آية ٥.

(وعَلامَاتٍ وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) سورة النحل آية ١٦.

(وجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) سورة الأنبياءء الآيات ٣٢، ٣٣.

(وبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وجَعَلْنَا سِرَاجًا وهَّاجًا) سورة النبأ الآيات ١٢، ١٣.

وإن كنا قد تحدقنا عن السموات والأرض فلا يفوتنا التحدث عما بينهما، ولنأخذ الهواء مثلاً؛ فإن الهواء الجوي بما يحوى من أكسجين وهو ضرورة لازمة لحياة الإنسان والحيوان والنبات، وبما يضم من ثاني أكسيد الكربون الذي يعد ركنًا أساسيًا في تكوين المواد النشوية في النبات وعاملاً هامًا في الحد من حرارة الجو، كل ذلك وما حوى الهواء من غازات أخرى؛ كالنيتروجين، والأزوت، وغيرها تهيئة لأسباب حياة الإنسان في الأرض.

وأن استخلاص الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وغيرهما من الغازات كان عاملاً من عوامل فتح الميادين الصناعية؛ فأقيمت المصانع، وأنشئت المؤسسات، واشتغلت الأيدي العاملة، مما أوصل الإنسان إلى مراتب التقدم والحضارة.

ومن السماوات والأرض وما بينهما تعلم الإنسان العلوم الكثيرة: كعلم الفلك، والجغرافيا، والجيولوجيا. ومن عدد السنين والحساب أرخ وسجل، ومن بحر النعم الإلهية تفنن، واخترع، وأقام، وصنع، فسبحان الرحمن الذي علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان.

ولمحة لابد منها إحقاقًا للحق، أن ذلك الإنسان في كثير من الأحيان لم يتخذ هذه النعم أداة لخير الإنسانية، بل اتخذها أداة للشر والحروب والدمار؛ فهذه القنبلة الذرية والأسلحة النووية كان يمكن توجيه طاقتها

للسلام ومنفعة الإنسانية، ولكن الإنسان اتخذ مما علمه الله طريقًا لإيذاء بني جلدته، وفناه لأصله، وتخريبًا لما شيدت يداه، فكان كالجمل ذي الخف الذي إذا جر المحراث لحرث الأرض يبطط ما حرثه.

لم يكتف الإنسان بمحاربة بني جلدته فحسب، بل حارب ربه واتخذ من آلاء الله سلاحًا لحربه، فلم يخش الله وران على قلبه فكفر وألحد وأنكر وجود الله ونسى قدرة الله ونسبها إلى الطبيعة، ونسى أن يسأل نفسه: من خالق هذه الطبيعة؟ فكان قلبه أغلظ من الحجارة، وكانت الحجارة أعرف منه بربها.

(وإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ومَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) سورة البقرة آية ٧٤.

نسى الإنسان عبادة ربه وعبد شهوته، وركع لنزواته وسار خلف عدوه الشيطان اللدود واستذل له حتى أذل عنق، فارتكب ما حرم عليه وترك ما أحل له حتى أصبح لا هم له إلا إشباع رغباته الجسدية وطبيعته الترابية، ونسى ما زود به من لطيفه ربانية وطبيعة روحانية فزين له سوء عمله.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِينَ والْقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا واللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ) سورة آل عمران آية ١٤.

ولو علم الإنسان أن الله سبحانه وتعالى أحل له الطيبات من الرزق، ولم يحرم عليه الانتفاع بالنعم والتمتع بالآلاء، بل سخر كل ذلك لأمره تفضلاً منه سبحانه وتعالى، ولكن ذلك في حدود ما أحل الله، وما ينفع الإنسان ما سار وراء شهواته وما عبد نزواته.

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سورة الأعراف آية ٣٢.

وإن الله يحب أن يرى نعمه على عبده ظاهرة وباطنة، ودليلنا على ذلك أنه سخر كل شيء لخدمة الإنسان ولرفاهيته، ولكن هذا الإنسان كفر بأنعم الله فكان لربه خصيمًا، ونسى أن من خلقه وهيأ له أسباب الحياة خلقه لحكمة وأكرمه، حتى أمر الملائكة أن تسجد له، وكان بسببه أن طرد إبليس وذلك زيادة في التكريم ولكن... (إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً).

وإن ما أجملنا في هذا الفصل، قد عزمنا بمشيئة الله العودة إليه تفصيلاً في كتاب جديد يحوى بحوثًا مستفيضة فيما وصل إليه الإنسان من رقي، وحضارة، وتقدم. وإشارات القرآن إلى هذا التقدم والرقي قبل أن يحدثا أو يعرفهما الإنسان، وأدعو الله التوفيق كما أدعوه (رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا).

الباب الثالث

المجتمع

الفصل الأول

الأسرة في الأديان

الأسرة هي نواة المجتمع، فإذا ما صلحت صلح المجتمع، ولو فسدت لفسد المجتمع، فإذا ترابطت الأسرة وساد أفرادها الحب والإخاء كانت نواة لمجتمع صالح تسوده المحبة ويعمه السلام ويعيش في أمن ورخاء، وإذا تفككت كانت نواة لمجتمع مفكك تسوده البغضاء والشحناء، وبذلك يختل نظامه.

ولما كانت الأسرة تتكون من أفراد تبدأ بالأب وهو الزوج والأم وهي الزوجة، ثم ينسلان أولادًا ذكورًا وإناثًا، فقد آثرنا بعد بيان حالة الفرد قائمًا بذاته أن نعرض حالته في أسرته، سواء كان زوجًا أو زوجة أولًا، أولادًا ذكورًا كانوا أو إناثًا. ولما كان الزوج والزوجة هما حجري الأساس في الأسرة، وهما الذرة الأولى التي نبتت منها الشجرة التي تفرع منها المجتمع، وذلك لقول الله عز وجل:

(واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وحَفَدَةً ورَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) سورة النحل آية ٧٢.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) سورة الحجرات آية ١٣.

كان حقًا علينا أن نتعرض لمركز كل من الزوجين في كل دين سواء كان دينًا وضعيًا أو سماويًا؛ فلو تتبعنا ديانة البراهمة، والبوذيين، وقدماء المصريين، والديانات الأخرى لوجدناها أنها قد اهتمت بالرجل فقط ولم تذكر المرأة إلا شذرًا، حيث لم يفرض عليها واجبات إلا من قبل زوجها، وكان قاسيًا فيما فرضه من واجبات في الوقت الذي لم يتعين لها حقوق. ولو رجعنا إلى الديانات الوثنية لوجدنا أن المرأة كانت متاعًا يورث.

فقد كان في الجاهلية قبل الإسلام الولد يرث أمه، كما كان له أن ينكح زوجة أبيه، ولم يكن للمرأة في ذلك العهد إن سلمت من الوأد وهي طفلة إلا سجن البيت، والرق وهي زوجة.

وإذا رجعنا إلى الأديان الكتابية قبل الإسلام نجد أن اليهودية كان تعدد الزواج فيها مباحًا إلى غير حد محدود أو عدد معدود، ودون قيد أو شرط؛ بل كان الرجل إذا ما طرأ على عاطفته تغير من ناحية المرأة يتركها إلى غيرها دون تطليق أو تسريح بعد أن يكون قد أنجب من الأولى، وتتكرر هذه الزيجات ويتكرر إنجاب البنين والبنات، وتقوم الكراهية والأحقاد. وبذلك انقسمت الأسرة الواحدة إلى أسباط يعادي كل سبط أخاه، مما نتج عنه أن تفرقت كل أسرة إلى أسباط، وكل سبط إلى جماعات، وكل جماعة إلى فرق وأحزاب، وكل حزب إلى دويلات، فكان مجتمعًا مفككًا أدى به

التفكك أخيرًا إلى انقسام اليهود إلى دولتين: إحداهما سميت بدولة يهوذا، والأخرى بدولة إسرائيل، وما يهوذا إلا من نسل إسرائيل، وبذلك يكون البيت قد انقسم على نفسه فخرب.

وإذا تتبعنا المسيحية الحالية بدينها الجديد وعقائدها الدخيلة على الأصل الذي جاء به السيد المسيح، نجد أن الكهنة قد استحدثوا من القوانين ما جعل الزواج سجنًا أبديًا يصدق فيه قول الفيلسوف المسيحي الإنجليزي الذي نقد القواعد الكنسية (بنتام) Bintham في كتابه أصول الشرائع الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ أحمد فتحي زغلول (ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل ألا تنفصل عنه حتى لو حلت في قلوبهما الكراهية الشديدة مكان الحب لكان ذلك أمرًا منكرًا لا يسيغه أحد من الناس، على أن هذا الشرط موجود بدون أن تطلبه المرأة؛ إذ القانون الكنسى يحكم به فيتدخل بين الزوجين حال الزواج قائلاً لهما: أنكما تدخلان سجنًا سيحكم غلق بابه، ولن يسمح بخروج أحدكما منه وأن تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء).

وقد أراد الكهنة من هذا القيد بين الزوجين والتصاقهما ببعضها حتى ولو بلغ بينهما التنافر حدًا يستحيل معه التوفيق أن تصبح الحياة الزوجية شيئًا غير مرغوب فيه، وبذلك يكون الزواج عند الشاب المسيحي أمرًا لا يقبل عليه إلا مدفوعًا تحت ظروف، وإذا اندفع إليه تصبح الحياة الزوجية سجنًا لا يطلق، ويصبح أفراد الأسرة جميعًا مهددين من جراء ذلك بأسوأ النتائج وشر الكوارث في جميع مناحى حياتهم الأدبية والخلقية، وبذلك

يخلو الجو لهؤلاء الكهنة أصحاب النزوات والشهوات فيرتعون، وتكثر العشيقات والخليلات، والعشاق والأخلاء؛ فتكثر الخطايا، فيروج سوق الاعترافات والغفران التي تباع صكوكه على يد هؤلاء الكهنة.

فالمسيحية تعرف الزواج ولا تعرف الفرقة، حتى لو كانت التفرقة واجبة ومحتمة، وهي ترجع إلى ثلاثة مذاهب: الكاثوليكي، والأرثوذكسي، والبروتستانتي؛ فالمذهب الكاثوليكي يحرم الانفصال تحريمًا باتاً ولا يبيح الطلاق مطلقًا، وإن أباح التفرقة الجسمانية بين شخصي الزوجين، مع اعتبار الزوجية قائمة، ولا يحكم بهذه التفرقة إلا في حالة خيانة أحد الزوجين للآخر، وهنا يحرم على الزوجين أن يتزوجا أو أن يطلقا، ويعتبر ذلك تصريحًا غير مباشر بارتكاب الفحشاء ما ظهر منها وما بطن، اعتمادًا على ما جاء في إنجيلهم المسمى بإنجيل متى الإصحاح التاسع عشر الآية السادسة: (فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان). والمذهبان الارثوذكسي والبروتستانتي يبيحان الطلاق في بعض الحالات، من أهمها: الخيانة الزوجية، ولكنهما لا يحلان الرجل أو المرأة المطلقان أن يتزوج بعد الطلاق، وذلك اعتمادًا على ما ورد في إنجيل متى الأصحاح الخامس الآية ٣٢: (وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن تزوج مطلقة فإنه يزني بها).

والمسيحية لا تقيم وزنًا لطبيعة الإنسان الدنيوية، حيث لا تجعل للعاطفة أي قيمة؛ ولذا جعلت أهم شيء بالنسبة للإنسان سجنًا أبديًا ينفره من إقامة الأسرة، ويجعله يهرب إلى الدير للترهب أو التبتل إن كان

عنده شيء من الخشية أو الخوف من الله، وإن لم توجد الخشية فقد تركت له الحبل على الغارب ليعيث في الأرض فسادًا.

فإذا فسدت الزوجة ولم ترع لعقد الزواج إلاً ولا ذمة واندفعت في تيار الفواحش فلا يجوز الانفصال، وإذا حكم بالانفصال فإنه لا يجوز للزوج أن يتزوج بغير الزوجة التي خانت العهد ولم تحافظ على ما أؤتمنت عليه، وهكذا الحال يكون مع الزوجة التي فسد زوجها وأصبح غير أهل لطاعتها، أو فقد مقومات القوامة الزوجية.

ويمكننا من هذا المثال أن نضرب أمثالاً توضح للقارئ مدى الخيانة الكبرى والجريمة العظمى التي ارتكبها الكهنة في حق الأسرة والمجتمع حتى نفر معظم الشباب من الزواج واعتبره قيدًا أبديًا لا يمكن الفكاك منه، مما كان له أسوأ النتائج وأوخم العواقب.

إذا تقدم أحد الشباب لأسرة من الأسر أعجبها منظره، وأصله، وحسبه، ومركزه، فزوجته إحدى فتياها، ثم ظهر بعد ذلك أن ذلك الزوج مصاب بخلل في قواه العقلية وتصرفاته مصدرًا من مصادر الخطر على من يعاشره أو يخالطه، أو كان مصابًا بمرض معدٍ يكون وبالاً على من يقاسمه فراشه، أو كان به عقم أو فاقدًا لمقوماته الجنسية، فإن المسيحية لا تسمح بالطلاق ولو كان قيام هذا الزواج شرًا مستطيرًا على الزوجين والذرية، وإن سمحت بالطلاق فإنها لا تسمح للزوجة المجني عليها أن تتزوج، وإن كانت مجبرة على الطلاق للأسباب السابقة.

ويمكن تطبيق المثل السابق في حالة ما إذا أخطأ الحظ وأوقع شابًا في زوجة (خضراء الدمن حسناء في منبت سوء)، فلا حيلة لهذا الشاب إلا أن يهجر بيته ويتخذ من أماكن اللهو والفجور وكرًا وعشًا.

ولما كانت الحالات التي ضربنا لها أمثلة تحدث في كل يوم وليلة، وما دام المسيحي إنسانًا وطبيعته من طبيعة البشر، فمن العسير أن يسير المسيحي على تعاليم المسيحية المستحدثة، فاضطر إلى أن يستحدث قوانين تبيح له حل عقدة الزواج، وتفك عنه أغلاله، ونعفيه من أسرار الكنيسة، وبذلك يكون قد تخلى عن السر السابع من الأسرار الكنيسية، ففر وترك الأسرار تنعى الكهنة الذين استحدثوها.

ولقد تعرض كثير من رجال الفلاسفة المسيحيين لنقد القواعد الكنسية، وخاصة نظام الزواج، وأشرنا من قبل إلى قول أحدهم، (وهو الفيلسوف الإنجليزي بنتام). ولم يكن الفلاسفة وحدهم الذين خرجوا على النظام الكنسي، فقد أباح القديس أوغسطين أن يتخذ الرجل سرية مع زوجته إذا عقمت وثبث عليها العقم، كما اعترفت الكنيسة بأبناء شرعيين لشرلمان من عدة زوجات، وقد بقى اعتراف الكنيسة بتعدد الزوجات إلى القرن السابع عشر.

وإن أشهر حادثة زواج وطلاق في المسيحية على مسمع ومرأى من الكنيسة ورجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم ومذاهبهم هي حادثة طلاق رئيس وزراء انجلترا الأسبق (سيرانتوني إيدن) لزوجته التي هجرته

وهربت مع عشيق لها إلى أمريكا، وقد تزوج إيدن بغيرها وهي تحيا معه، دون أن نسمع أي اعتراض من الكنيسة وكهنتها الذين قاموا بثورة عاتية ضد أدوارد الثامن الملك الأسبق لانجلترا الذي تزوج خليلته المطلقة، والتي كان يعاشرها وهي في عصمة زوجها دون اعتراض من الكنيسة على تلك الحياة المحرمة، ولكن الثورة قامت تقتلع الجذور وتحطم الأسوار حينما طلقت العشيقة من زوجها، وأراد أن يتزوجها الملك زواجًا شرعيًا، وكان للثورة التي قامت بها الكنيسة في وجه أدوارد الذي استمع لنداء قلبه وسكتت عن إيدن الذي كان يتولى أكبر منصب في الدولة نتيجة حتمية، بأن فضل أدوارد مطالب الطبيعة وترك العرش للكنيسة.

إذن فنظام الكنيسة يعلو تارة وينخفض تارة أخرى، مما جعل الناس لا تعترف به ولا تقره، لأنه يقيد من الحريات حسب الأهواء، ويضع الأسرة في مهب الرياح؛ ولذا نجد محاكم الغرب تركت ذلك النظام خلف ظهرها وهي تحكم بالطلاق كل يوم وتبيح للزواج كل لحظة دون النظر إلى ما استحدثه الكهنة من قيود وأغلال.

فجميع الأديان، ومنها ديانة البراهمة، وبوذا، وعباد الوثن، والمجوس، حتى المبادئ الوضعية قد سايرت الحياة الواقعية وجارت الطبيعة البشرية في شئون الزواج. ولكن كهنة المسيحيين أبوا أن يفرطوا في مفتاح السجن، لأن في ضياع هذا المفتاح ضياع لسلطتهم.

والذين تمسكوا بالنظام الكنسي، غاب عنهم أو لم يغب عنهم، نسوا أو تناسوا انحدار الأسر وانقسام البيوت؛ فليعلموا أن اتخاذ الزوجات للعشاق أصبح من مستلزمات العهد الحاضر، واتخاذ الأزواج للخليلات أصبح من المدنية، كل من الأزواج والزوجات منازل الزوجية أصبح ضرورة من ضروريات الحياة، كل ذلك أوحت به النظم الاستبدادية التي وضعها هؤلاء وأولئك من الذين قاموا على أمور المسيحية. ولقد أصبح منزل الزوجية مهجورًا وخرابًا بعد أن كثرت الخلافات، وهربت الزوجات مع عشاقهن. والمنزل الذي لم يخرب أصبح عشًا للغرام تتناجى فيه العيون، وتتلاقى فيه المحرمات، وتزين جدره صور الخلاعة في أجلى معانيها؛ وبذلك أصبحت الأسرة في عرف المجتمع المسيحي خرافة، واختلطت الأحساب والأنساب وأصبحت علاقات النسب الصحيح بين الآباء والأبناء موطنًا للشك وعرضة للريبة. الشيء الذي تطور فيما بعد لعدم اعتراف الآباء بأبنائهم.

وإذا كانت هذه هي مواقف الأديان من الزواج، فلنعرض موقف الإسلام من هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة التي تعتبر أساسًا لبنيان الأسرة والمجتمع، فبسلامتها تسلم الأسرة، وبصيانتها تصان الكرامة وإلا فقل سلام على الأسرة والمجتمع.

الفصل الثاني

الأسرة في الإسلام

لقد اعترف الإسلام بالأسرة اعترافًا ضِمنه أن الأسرة هي الدولة الصغيرة، فيها يتعلم الإنسان لغته، وتتربى فيه روح الإنسانية، ويشب على الروح الاجتماعية؛ فينمو ويترعرع على الوفاء ورعاية الحرمات، والإيثار، وحب الخير، والتعاون، والتآزر.

لذا أحاط الإسلام الأسرة بضمانات وسياج متين، بأن فرض على كل عضو من أعضاء الأسرة واجبات، كما شرع له حقوقًا؛ ففرض واجب الطاعة على الأبناء نحو آبائهم وأمهاتهم، وذلك وارد في قوله الله عز وجل:

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا) سورة الأنعام آية ١٥١.

(وقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) سورة الإسراء آية ٢٤.

ويبين الله فضله على الإنسان بفضل والديه عليه حتى يشكر الإنسان ربه على نعمة الوالدين:

(ووَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ووَضَعَتْهُ كُرْهًا وحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى والِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إنِّي تُبْتُ إلَيْكَ وإنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ) سورة الأحقاف آية ١٥.

(ووَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وهْنًا عَلَى وهْنٍ وفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوَالِدَيْكَ إلَيَّ المَصِيرُ (١٤) وإن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) سورة لقمان آية ١٥

وقد قال رسول الله ﷺ لولد جاء يشكو أباه الذي يريد منه مالًا، فقبض الرسول على الولد من لبابته وقال له: (أنت ومالك لأبيك). وجاء رجل يسأل رسول الله ﷺ: ومن أحق بصحبتي يا رسول الله؟ فأجابه الرسول ﷺ، (أبوك وأمك).

وكما وصى الله الإنسان بوالديه حسنًا، كذلك أوصى الله الوالدين بأبنائهم خيرًا، وأمرهم بتعليمهم وتربيتهم والأخذ بيدهم إلى مواطن العزة، والسير بهم على منهج سليم يصل بهم إلى أحسن المستويات؛ ولذا فقد رأينا في القرآن مثلاً لقمان يعظ ابنه:

(وإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) سورة لقمان آية ١٣.

وقد وجه الله سبحانه وتعالى الآباء إلى المحافظة على أبنائهم حتى جعل مسئولية انحراف الأولاد واقعة على آبائهم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وأَهْلِيكُمْ نَارًا وقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ).

وقد جعل الله الأولاد من أحب المتاع إلى النفس في الدنيا، فقال تعالى:

(الْمَالُ والْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا).

وقد كان الناس في زمن الجاهلية يوئدون البنات ويتخلصون من الأولاد خوفًا من الفقر، فنهى الله عن ذلك بقوله تعالى:

(ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإيَّاكُمْ) سورة الإسراء آية ٣١

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) سورة الأنعام آية ١٤٠

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ولا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ ولا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) سورة الممتحنة آية ١٢.

وقد فرض الإسلام على الآباء أن يعلموا أولادهم الصلاة في سن السابعة، ويعاقبوهم على تركها في سن العاشرة، كما فرض عليهم تعليمهم القراءة، والكتابة، والفروسية، وأن يفتحوا أمامهم أبواب المستقبل بوضع جميع الإمكانيات والوسائل التي تجعل منهم رجالاً للمستقبل ينفعون أنفسهم ويعملون جنودًا في ميادين الوطنية، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (علموهم ولا تورثوهم). وفرض على الآباء أيضًا أن يكونوا حكماء مع أولادهم، ينشئونهم على الشجاعة الأدبية وحرية الرأى، وتدريبهم على التصرف في شئونهم الخاصة والعامة، وتسليمهم مقاليد الأمور متى عرفوا أنهم أصبحوا أهلاً لذلك.

وإن أكبر مثل للحرية الشخصية ضربه رسول الله ﷺ مع إحدى البنات، والبنات هن عرض الأب وشرفه، وبشرفهن يتعلق شرف الأسرة جميعها، ومع هذا فقد جعل الإسلام لهن الحرية في اختيار أزواجهن. فإذا جاء وقت زواج البنت وهي بالغة عاقلة، كان لها حق اختيار الزوج الذي تريده اختيارًا حرًا لا إكراه فيه، على أن يشترك معها وليّها بالمشورة والرأى فيمن تختاره، ولكن ليست المشورة هنا معناها إجبارها على زوج معين وأن اختار هو زوجًا لا يتم زواجها إلا برضاها، وإلا فالزواج باطل.

وقد روى في هذا الشأن أن فتاة ذهبت إلى عائشة أم المؤمنين ﵂ تشكو إليها أن أباها أراد تزويجها من ابن أخيه ليرفع خسيستها، فقالت السيدة عائشة للفتاة انتظري حتى يحضر النبي ﷺ، فلما حضر صلوات الله عليه وسلامه، ذكرت له الفتاة ما ذكرته لأم المؤمنين، فقال عليه الصلاة والسلام: (الأيم أحق بنفسها من وليها).

وقبل الاستطراد في حقوق باقي أفراد الأسرة وهما الزوجان؛ لأنهما كما قدمنا اللبنتان الأساسيتان في بناء الأسرة، فلنعرض المساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام. فقد استحدث الإسلام في هذا الشأن ما غفلته الشرائع الأخرى على أساس متين من العدل بين الرجل والمرأة، والمساواة بين الذكر والأنثى.

وقد قضى الإسلام على التفرقة بين الرجل والمرأة في المرتبة الإنسانية، كما ساوى بينهما أمام القانون في الحقوق والواجبات، وقد بين الله في محكم آياته تلك المساواة بين الذكر الأنثى في الدنيا والآخرة.

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ) سورة آل عمران آية: **١٩٥**.

(لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ولِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ) سورة النساء آية: **٣٢**.

وإن أوضح نقطة في المساواة بين الرجل والمرأة ما ورد في قول الله في حق تكريم الله للإنسان في قوله عز وجل في سورة الإسراء: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)، فلم يقل عز وجل لقد كرمنا الرجل فقط، أو لقد كرمنا المرأة فقط، بل كان التكريم شاملاً لا تفرقة فيه بين ذكر وأنثى.

وكذلك لم يفرق الله بين الرجل والمرأة في الجزاء، فعندما أغوى الشيطان آدم وزوجته وأوقع بهما فأكلا من الشجرة المحرمة كان العقاب واقعًا على الجنسين، حيث قال تعالى في سورة طه:

(فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن ورَقِ الجَنَّةِ).

وكما أباح الإسلام للرجل العلم، أباح للمرأة أن تتعلم العلم بجميع أنواعه ومراحله، وكما جعل العلم فريضة على الذكر جعله فرضًا على المرأة؛ وفي هذا يقول الرسول صلوات الله عليه: (العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة).

وكذلك أباح الإسلام للمرأة مساواة الرجل في القيام بأي وظيفة، وفي سبيل ذلك أباح الاختلاط بالرجال في الحاة العامة، على أن لا يخرج هذا الاختلاط عما قرره الكتاب وقررته السنة.

والإسلام يحتفظ للمرأة بشخصيتها المدنية، وبأهليتها في تحمل الالتزامات، وأعطاها كل الحرية في التعاقد، سواء كان التعاقد على بيع، أو

شراء، أو هبة، أو وصية. كما أقر إدارة المرأة لأعمالها والإشراف على مختلف شئونها الاقتصادية، وبذلك كان حتمًا على المرأة أن تختلط بالرجال.

وإن تاريخ المرأة المسلمة الحافل بالأمجاد وما أدته من جليل الأعمال في زمن الرسول ﷺ ليبين مدى احترام الإسلام للمرأة، فأسماء بنت أبي بكر التي كانت تعمل محل فرقة استطلاع كاملة، حيث كانت تنقل الأخبار والغذاء إلى رسول الله وأبيها في غار حراء أثناء هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وعائشة بنت طلحة حفيدة أبي بكر، التي كانت تناضل الرجال بالسهام والنبال لخير دليل على إقرار الإسلام للمساواة بين الرجل والمرأة، وتقليدها مراتب الشرف وأعظم النياشين. ولقد ورد بما لا يدعو إلى الشك أن النبي ﷺ جمع بين الرجال والنساء في الحروب، وساوى بينهن وبين الرجل في الغنائم، وذلك ما فعله مع كعيبة بنت سعد في غزوة خيبر. وتكريم النبي ﷺ للمرأة لم يقف عند كعيبة، بل كان لكثيرات منهن، فها هي أمية بنت قيس الغفارية التي أركبها النبي ﷺ خلفه في إحدى الغزوات وقلدها قلادة ظلت تتقلدها حتى ماتت، ووضعت معها في قبرها بناء على وصيتها، وكم من سيدات خضن المعارك حاملات السيف، ممتطيات ظهور الخيل صائلات جائلات في ميادين الحرب بين القيام على خدمة الجنود، وطهي الزاد، وتضميد الجرحى، ومواساة المكلوم.

والإسلام حين ساوى بين الرجل والمرأة، وأباح الاختلاط بين الجنسين، اشترط عدم الخلوة بين الرجل والمرأة، وتحشم المرأة وستر جميع

أجزاء جسمها، حتى لا تكون هناك فتنة أو ضرر خلقي، وأن تكون حركاتها متوجة بتاج الجدّ، فلا يبدو منها ما يبعث على الإغراء أو يثير الغريزة، وأن تكون جادة في حديثها حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض، وأن تغض المرأة من بصرها، كما أوجب على الرجل أن يغض من بصره، وقد أوردنا الآيات الآمرة بذلك في فصلي: (الإنسان في مدرسة الإسلام) من هذا الكتاب.

ولو قارنا بين موقف الإسلام من المرأة بعد اليسير الذي سردناه، وموقف الأديان الأخرى منها، لوجدنا أن الإسلام قد أعلى قدرها واحتفظ بجميع حقوقها أمام القانون.

والزواج في الإسلام لا يفقد المرأة شخصيتها ولا أهليتها في التعاقد والتملك، فتظل المرأة بعد زواجها لها حق البيع، والشراء، والرهن، والتنازل، والوصية، ولها ثروتها الخاصة المستقلة الغير خاضعة لسلطه زوجها، ولا يعطي الإسلام بل يحرم على الزوج أن يأخذ شيئًا من مالها إلا برضاها، على أن يكون رضى خالصًا من كل ضغط أو إكراه. وقد رسم القرآن الكريم الخطوط العريضة للمحافظة على ثروة المرأة وحقوقها في قوله تعالى:

(تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا) سورة البقرة آية ٢٢٩.

(وإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وإِثْمًا مُّبِينًا وكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وقَدْ أَفْضَى

بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا) سورة النساء الآيتان ٢٠، ٢١.

(وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا) سورة النساء آية ٤.

وفي الوقت الذي أعطى الإسلام المرأة كامل حقوقها، نجد أن القوانين الوضعية قد نزعت من المرأة جميع أهليتها المدنية، ولنتخذ القانون الفرنسي مثلاً، لأنه أثر من آثار القوانين الرومانية، ولأن مع الأسف أكثر البلدان الإسلامية تتخذ منه ركيزة لقوانينها؛ فالمادة ٢١٧ من القانون الفرنسي تقرر أن (المرأة المتزوجة لا يجوز أن تهب، ولا أن تنقل، ولا أن ترهن ملكيتها بدون اشتراك زوجها في العقد، أو موافقته الكتابية على ذلك).

كما أن الديانات السابقة على الإسلام، سواء كانت وضعية أو سماوية، لم تظهر للمرأة حقوقها، بل جعلتها شبه متاع مملوك للزينة والترفيه، وعاشت المرأة في ظل القيود والأغلال التي أدخلتها سجن الرق المدني، فلا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، أسيرة لإرادة الزوج، ورهينة لشهواته ونزواته.

ولطبيعة المرأة التي ركب الله فيها إرهاف العاطفة، وسرعة الانفعال والحنان الذي قد يزيد عن الحد المألوف مما يفقدها السيطرة الكاملة على نواحي حياتها؛ لهذا السبب ولهذه الطبائع التي جبلت عليها المرأة، والتي لم تخلق على هذا المنوال عبثًا، بل خلقت على هذا الوضع حتى يكون لها من

طبيعتها ما يتيح لها القيام بوظيفتها الأساسية، وهي الأمومة والحضانة على خير وجه، فالأمومة والحضانة تحتاجان إلى عاطفة مرهفة وحنان رحيم أكثر مما تحتاجان إلى تفكير وإدراك.

لهذه الأسباب جعل الإسلام القوامة للرجل على المرأة، لأن الرجل لا يندفع في الغالب مع عواطفه ووجدانه اندفاع المرأة، بل تغلب عليه ناحية الإدراك والتفكير، وهما الصفتان اللتان تحتاج إليهما القوامة والرياسة، وبذلك يمكن القول أن صفات الرياسة والقوامة متوفرة في طبيعة الرجل أكثر من المرأة.

ولم يعط لإسلام حق القوامة للرجل على المرأة للأسباب السالفة فحسب؛ فالرجل في الإسلام هو المكلف بشئون الأسرة اقتصاديًا، وهو المسؤول عن رعاية الأفراد أدبيًا وروحيًا، وقد ألقى الإسلام كل مسئولية على عاتقه، يسأل عن كل فرد حتى يبلغ أشده، وهو المسئول عن تقويم الأعوجاج في الابن والزوجة، وتعريفهما شئون دينهما ودنياهما: لقول الله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) سورة النساء آية ٣٤.

إذن فالقوامة للرجل في الإسلام قوامة رحيمة، أوجب الإسلام على الرجل العدالة، والمعاملة الحسنة، والرفق في علاج مشاكل الحياة الزوجية، والتعاون مع الزوجة في تدبير سياسة البيت، وأخذ الأمر بيسر وهوادة.

ولم يعط الإنسان حق الطاعة للرجل مطلقة، بل أعطى المرأة الحق في ألا تطيع زوجها إلا في حدود المعقول والمألوف، وقد قال الله تعالى في سورة البقرة آية ٢٢٨:

(ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ).

وبذلك يكون الإسلام قد أعطى كلا من الرجل والمرأة حقوقًا تقابلها واجبات، والواجبات المفروضة على الرجل بينَها النبي ﷺ في حديثه: (خيركم، خيركم لأهله).

وقد أحاط الإسلام عقد الزواج بضمانات تكفل لكل من المتعاقدين حقوقه وواجباته، فقد ورد أمر الله عز وجل:

(وعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا ويَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) سورة النساء آية ١٩.

ويوصي النبي ﷺ الرجل بالمرأة خيرًا فيقول: (النساء أمانة في أعناق الرجال، لا يكرمهن إلا كل كريم، ولا يظلمهن إلا كل لئيم). وما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ في وصيته للرجال بالنساء لخير دليل على أن الإسلام أعطى القوامة للرجل، وقيده بقيود سيسأل عنها: (لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر).

وكما أمر الإسلام الرجل بالقوامة الحكيمة، أمر المرأة بأن تكون مطيعة لربها وزوجها، قائمة على شئون بيتها في أمانة، وإخلاص، ووفاء،

ومحافظة على عرض ذلك الزوج وماله. وقد قال رسول الله ﷺ: (المرأة إذا عبدت ربها، وصلت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت الجنة بغير حساب).

ولكي يكون عقد الزواج من القداسة والهيبة ما يجعل الزوجين يتمسكان به، قد جعل الإسلام التروي في اختيار الزوجة بأن يتخير الرجل امرأته، وينتقيها على أسس هامة وصفات معينة اشترط الإسلام أن تكون متوفرة في المرأة، وذلك حديث رسول الله ﷺ في هذا الشأن: (فاظفر بذات الدين تربت يداك). وقد اهتم الإسلام بذات الدين لأن الدين يجمل المرأة جسمانيًا ومعنويًا، وبذلك إذا نظر إليها زوجها سرته، وإذ غاب عنها حفظته في ماله وعرضه، وإذا أمرها أطاعته. وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوقوع في غير ذات الدين فقال: (إياكم وخضراء الدمن. فقالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء).

وكما أعطى الإسلام الرجل حق اختيار الزوجة، أعطى المرأة حق اختيار زوجها برضاها، وأمرها ألا تتزوج إلا من تتوسم فيه الصلاح والتقوى، وبذلك تضمن قوامًا عليها، أمينًا على القوامة، معطيًا لتلك القوامة حقها. وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في المسئولية الزوجية، وأشرك معهما الأبناء والخدم لكي تحتفظ الأسرة برباطها ولا يتفرق شملها، فجعل الرجل راعيًا في بيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، والخادم راعيًا في مال سيده؛ فقد قال رسول الله ﷺ: (الرجل راع في أهله، والمرأة راعية في

بيت زوجها، والخادم راع في مال سيده، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

لما كان من أهم مشاكل الأسرة مشكلة الطلاق التي اتخذها بعض الذين لا دين لهم تجارة، وخرجوا عن الحدود المرسومة للطلاق، ونسوا أن الطلاق لم يشرعه الإسلام إلا لأسباب قاهرة تخرج عن إرادة الزوجين، مما جعل الخارجين على الإسلام يعيبون عليه هذا النظام، ومن المؤسف أن يقلدهم في ذلك بعض المسلمين فتشدقوا بما يقولون، وبدلاً من دراسة الإسلام على حقيقته والبحث عن جواهره ولآلئه انجرفوا في تيار أعداء الإسلام، فناصبوا الإسلام العداء، واتهموه بالرجعية. ولما كان نظام الطلاق في الإسلام نظامًا شرع على خلاف ما اعتقد الذين يعيبونه، وليس العيب في ذلك عيب الإسلام، بل العيب عيب المسلمين الذين لم يقفوا على جمال التشريع الإسلامي وكماله، وعلى ذلك لم يفهموا حقيقة الإسلام، ولا أملك في هذا المجال إلا أن أقول قول أحد الشعراء مع بعض التغيير حتى يتسق المعنى:

نعيب ديننا والعيب فينا ومـا لـديننا عيب سوانا

وقبل أن أتكلم عن نظام الطلاق في الإسلام، أريد أن أشير إلى ما سبق أن تحدثت عنه في الفصل السابق من هذا الكتاب عن تحريم الطلاق في الدين المسيحي، وما جره من ويلات على الأسر المسيحية، وما اضطر إليه بعض الفلاسفة المسيحيين من نقد، وما اضطر إليه المجتمع المسيحي من الخروج على قواعد الكنيسة ونظمها، وإقرار الطلاق أمام احتياجات

الطبيعة البشرية، ومشاكلها التي أجبرت المسيحيين على الخروج على القاعدة الانجيلية (ما جمعه الله لا يفرقه إنسان)، (من تزوج بمطلقة فهو يزني).

أجل.. لقد أباح الإسلام الطلاق لأنه دين تخلى عن الجمود، وتمشى مع واقع الحياة، وساير الطبيعة البشرية، ولم تكن فيه صور للخيال الذي استحدثه رجال الأديان الأخرى.

وواقع الحياة يدل على أن كثيرًا ما يحدث في الحياة الزوجية ما يوجب الطلاق، بل يجعله قانونًا لازمًا ومحتمًا لحماية الأسرة، أو حماية أحد الزوجين أو كليهما. ومسرح الحياة تمثل عليه كل يوم مأساة تنبأ بها التشريع الإسلامي؛ فجعل الطلاق لها علاجًا، وما ذنب الجراح إذا احتاج جسم الإنسان إلى أن يعمل فيه بمبضعه، وكذلك ما ذنب الإسلام إذا رأى المجتمع مريضًا يحتاج إلى علاج كمبضع الجراح.

ومع إباحة الطلاق في الإسلام إباحة تامة ولكنها مقيدة؛ فقد قيد الإسلام الطلاق بقيود جعل ذلك التشريع لا يطبق إلا عند الضرورة القصوى التي تكون وسيلة من وسائل حفظ حقوق كل من الزوجين ودفع الضرر عنهما؛ إذ أنه لا يصح اللجوء إلى الطلاق لأسباب تافهة يمكن علاجها، وقد قال رسول الله ﷺ: (إن أبعض الحلال عند الله الطلاق). ولقد جاء في بعض الروايات أنه عند حدوث الطلاق تهتز السماوات، وتشمئز الملائكة؛ وذلك لأن الإسلام يرى أنه لا ينبغي أن يفكر الأزواج

في الطلاق لمجرد تغيير يطرأ على العاطفة، والمعروف عن العاطفة أنها قلب تكره ثم تحب، فيجب ترك تغير العاطفة للزمن الذي يمكن أن يعيدها إلى أصلها.

ويمكن الاستشهاد بواقعة الرجل الذي جاء عمر بن الخطاب ﷺ يستشيره في تطليق زوجته التي لا يحبها، وتغير عاطفته نحوها، فنهره عمر وقال: ويحك، ألم تبن البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟. وفي قول عمر هذا أن الأسرة والرباط الزوجي لهما أركان غير الحب، وإن كان الحب ركنًا لا غنى عنه، ولكن أهم الأركان في بناء البيوت بث المراحم بواسطة الرعاية. والتذمم الذي ذكره عمر في قوله هو أن يكون الرجل مصدرًا لجمع الشمل، وبناء الصرح، والعمل على عدم تشريد الأطفال الذين لا حول لهم ولا طول. وقد أوصى الله بالأطفال والمستضعفين من النساء في قوله تعالى:

(والْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا واجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ ولِيًا واجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا) سورة النساء آية ٧٥.

لا أن يكون أداة لتفريق الشمل الذي يؤدي إلى تشريد الأطفال، وسوء مصيرهم، ونكد العيش الذي تبتلى به الأسرة فيكون ضحيتها هؤلاء الذين لا حول لهم ولا قوة، وبدون ذنب جنوه، أو جريرة أرتكبوها إلا فتور عاطفة الزوج، وكثيرًا ما تتغير العواطف ثم تعود.

وقد قرر الإسلام عدة وسائل لعلاج مشاكل الزوجين؛ تحاشيًا لوقوع الطلاق وإزالة أسبابه، ومنها أنه عندما يحدث نزاع بين الزوجين أن يبحث كل منهما من جانبه عن الوسيلة التي تقر إلى الصلح والوئام؛ وذلك لقول الله عز وجل: (وإنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا والصُّلْحُ خَيْرٌ) سورة النساء آية ١٢٨.

وفي حالة عجز الزوجين عن التئام جروحهما، والصلح بينهما، ولم يستطيعا الوصول إلى الوفاق بوسائلهما الخاصة، وجههما الإسلام إلى عرض الموضوع على مجلس عائلي، وقد حدد القرآن أعضاءه بحيث أن يكون مكونًا من أحد أقارب الزوج، وأحد أقارب الزوجة، ثم يعرض الزوجان على هذين الحكمين أسباب الشقاق، ثم يبدأ الحكمان بدورهما العمل على القضاء على هذا الشقاق، وبذل ما في وسعهما على إزالة أسبابه، وإعادة الصفاء بين الزوجين؛ وهذا لقول الله عز وجل:

(وإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إن يُرِيدَا إصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا) سورة النساء آية ٣٥.

وإن استحال على مجلس الأسرة التوفيق بين الزوجين، فتكون الاستحالة معناها أن مقومات الزوجية قد نفدت بنفاد وسائل التوفيق، وهنا يجيز الإسلام الطلاق، وهدف بهذا الطلاق إلى مصلحة الأسرة

نفسها، ولتحقيق الصالح العام، وأعطى في هذه الحالة للرجل فرصة طويلة محاطة بإجراءات معقدة لعله يراجع نفسه ويبقى على الحياة الزوجية.

والفرصة التي أعطاها الإسلام للرجل الذي يطلق امرأته طلقة واحدة رجعية في طهر لم يتصل بها أثناء مدة ثلاثة أشهر، يكون له الحرية خلالها، إن رأى ثمة خير من إرجاع امرأته إلى عصمته، وأن هذه المراجعة تعتبر استمرارًا لحياة الزوجية، وقد حسن الإسلام، بل وحض على المراجعة والإبقاء على الزوجة الأولى خير من أن يطلق ثم يتزوج بأخرى، وذلك لقول الله تعالى:

(وبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا) سورة البقرة آية ٢٢٨.

إذن فالطلاق في الإسلام نظام وضع لصالح المجتمع، وحفظت فيه حقوق كل من الزوجين بما يطابق العدالة، وقد وضعت للطلاق أسس فلا ينبغي الخروج عليها. وقد بين الإسلام أن الطلاق يشبه عملية بتر لابد من إجرائتها إذا ما رأى فسادًا سيحدث للجسم كله بسبب الجزء المبتور، وقد أوجب الإسلام على الرجل غرامات مالية وكفالات اقتصادية فادحة كمؤخر الصداق، والنفقة، وغيرها مما قد يكون سببًا من أسباب تراجع كثير من الأزواج، أو عدم الإقدام على حدوث الطلاق.

ولم أجعل من هذا الكتاب بحثًا فقهيًا حتى يمكنني الإلمام بالمسائل الفقهية المتعلقة بالطلاق، ولكني أشرت إلى نقطة تبين المساواة وحكمة الإسلام في التشريع الذي عابه غير المسلمين.

ولم نستطع أن نغفل نقطة هامة يتشدق بها غير المسلمين ويتخذونها عيبًا من عيوب الإسلام، والنقطة هذه هي نقطة التعدد في الزوجات، ويقلدهم في ذلك بعض من المسلمين الذين قلدوهم في مسألة الطلاق، فقلدوا المتشدقين، ونفخوا في أبواقهم، وتكلموا بألسنتهم، واتخدوا من حججهم قرينة ضد الإسلام وهم لا يعلمون أن دعواهم باطلة، وأنهم عن الحق مبعدون عن الجادة، يحيدون لأنهم اتخذوا من حجج أعداء الله حجة ضد الإسلام؛ وبذلك اتخذوا من هؤلاء الأعداء أولياء لا يألونهم إلا خبالا، ولا يزيدونهم إلا خسارًا.

وقد أباح الإسلام التعدد كعلاج اجتماعى ناجح في عدة ظروف تحتاجها طبيعة المجتمع، فلنفرض أن رجلاً كان متزوجًا، ثم تعرف بأسرة فأحب إحدى فتياتها، وبادلته الفتاة الحب، فما بال الذين يعيبون التعدد. فهل يتخذ هذا الرجل الفتاة خليلة له؟ أم خيرٌ له أن يتخذها زوجة ثانية، ذلك صون للأسرتين.

والإجابة قطعًا تحتم أن يتخذها زوجة ثانية، لأن الزوجة الأولى تفضل أن تعرف أن زوجها متزوج بزوجة ثانية من أن تعرف أن لزوجها خليلة أو عشيقة، كما أن ذلك أفضل لأسرة الفتاة وصيانة لشرفها، لأن أسرة الفتاة

تفضل أن تكون فتاتها زوجة ثانية، أو ثالثة، أو رابعة، من أن تكون عشيقة.

ثم نعود ونسأل المتشدقين بعيوب التعدد عما إذا كان هناك رجل متزوج وله أولاد، ثم تغيرت عاطفته تجاه زوجته، فهل يتخلى عن زوجته الأولى ويشردها وأولادها، أم أن يبقى عليها ويتزوج بثانية ما دام قادرًا على الإنفاق، وذلك أصون لأولاده وزوجته الأولى التي لو تركها لترك الأولاد لتصاريف القدر، وبذلك يكثر التشرد في المجتمع، ولا يغيب عن بالنا أنه ربما لم يكن للزوجة الأولى عائل غير زوجها.

وليعلم أولئك المفترون على الإسلام أنه لم يفقد من حسابه عند فرض التعدد وإباحته أن طبيعة الإنسان الدولية تحتم الحروب والمنازعات، وكثيرًا ما تحدث الحرب بين دولتين، ونتيجة الحرب معروفة؛ وهي أن يموت عدد كبير من الرجال المحاربين، وبذلك تتشرد نساؤهم.

ويمكن قبل الاستطراد أن نشير إلى الإحصائيات التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية التي بينت أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها كان عدد النساء الأرامل أكثر من عدد الرجال في بعض الدول.

لذلك احتاط الإسلام إلى هذه الناحية حفظًا لهؤلاء النساء اللائي ضحين بأزواجهن في سبيل الدفاع عن الوطن، فأباح تعدد الزوجات، وكانت هذه الإباحة أثرًا طيبًا من آثار الإسلام. وقد ظهر ذلك الأثر في صدر الإسلام؛ إذ تزوج الذين نجوا من ويلات الحرب بنساء الشهداء،

واعتبرت الزوجة الأولى أن هذه تضحية يفرضها عليها الدين، والواجب، والعرف الإنساني؛ بأن تشاركها امرأة الشهيد زوجها تقديرًا لأعمال زوجها في سبيل رفع راية الإسلام، وتقديرًا للأرملة التي شجعت زوجها على الإقدام على العمل النبيل، فوجب ألا تتركها تعيش شريدة معرضة للتفريط في أعز ما تملك المرأة في هذه الحياة الدنيا.

وكثيرًا ما نرى أن شابًا تزوج بشابة جميلة موفورة الصحة قامت على خدمة زوجها خير قيام، وشاركته في رفع دعائم البيت، وبعد مضي مدة ألمّ المرض بتلك الشابة، ثم تطور إلى مرض عضال أقعدها عن أداء وظيفتها الإنسانية في مملكتها التي خصصها الله لها وهي المنزل، أو أفقدها مقوماتها الجنسية، في الوقت الذي لا يزال زوجها الشاب في ريعان شبابه يتمتع بحيويته، فهل يترك هذا الزوج نهبًا لهواه وفريسة لشهوته فيبني أعشاشه في الخارج ويعيش في الظلام؟ أو يأتي بعشيقة إلى منزله فيضاعف آلام الزوجة المريضة؟ أم أن يترك المريضة وربما لم يكن لها من يعولها غيره؟ أم أن يتزوج بثانية وربما كانت خادمة أمينة للزوجة الأولى المريضة؟.

نعتقد جميعًا أن الأفضل أن يتزوج الشاب بزوجة ثانية مع الإبقاء على الأولى، وبفضل إدراكه السليم وتقديره لما أدته الأولى له من خدمات، وبفضل توجيهه للزوجة الثانية التي ربما كان إدراكها ناضجًا فتتمثل الوفاء في زوجها الذي لم يفرط في من أصابها المرض فتكون وفيه له ولزوجته الأولى المريضة.

في هذه الحالة يرى كل ذي مرءوة، وذي عقل سليم أن الطبيعة البشرية واحتياجات ذلك الزوج هي التي فرضت على ذلك الشاب التعدد، وأن الإسلام كان على بينة بضغط الطبيعة الإنسانية فأباح التعدد، وبذلك أنقذ المجتمع من كل شائبة تشوبه من شوائب الدنس والفجور.

والأسباب التي من أجلها أباح الإسلام تعدد الزوجات تجل عن الحصر، ومع ذلك لم يترك الإسلام ولم يبح التعدد إباحة مطلقة، فقد حرم على المسلم أن يجمع بين أكثر من أربعة، كما جعل للإباحة شروطًا، وتلك الشروط جعلت التعدد عند الضرورة القصوى، وفي حالة الضرورة القصوى كان للتعدد شروط أيضًا، وهو العدل بين النساء، لقول الله سبحانه وتعالى:

(فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا) سورة النساء آية ٣.

والعدل بين النساء من أشق ما يمكن، وقد بين ذلك الله في قوله:

(ولَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ) النساء آية ١٢٩.

والله سبحانه يعلم بحكمته أن من أشق ما يمكن العدل بين النساء، فالقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والعادة البشرية

أن يشتهي الرجل واحدة من نسائه فيسير وراء قلبه، ويغمرها بالحنان والعطف، ويؤدى لها مطالبها، وبذلك ينعدم العدل بين الزوجتين.

وإني لتحضرني قصة ليس المهم فيها أنها حقيقية أو غير حقيقية، إنما المهم أنها تدل دلالة قاطعة على أن العدل بين النساء يكاد يكون مستحيلاً. فيروى أنه كان هناك في صدر الإسلام رجل مما كشف الله عن أبصارهم وبصيرتهم متزوجًا باثنتين ماتتا في يوم واحد، فقام بتكفينهما من قماش واحد بعد غسلهما من ماء واحد، وطيبهما من طيب واحد، وساوى بينهما في كل شيء، ولما أراد الخروج بهما إلى القبر كان باب البيت ضيقًا، فاضطر أن يخرج إحداهما قبل الأخرى، وبعد أن قام بدفنهما رجع إلى البيت مكلومًا متعبًا، فنام، فجاءته التي خرجت بعد الأخرى في رؤياه تعاتبه لأنه جعل السبق في الخروج إلى القبر لزميلتها.

إن هذه القصة تبين حكمة التشريع الإسلامي فيما فرضه الإسلام على الرجل من عدل بين النساء إذا اضطر إلى التعدد، مما يجعله مترددًا عن أن يجعل التعدد لشهوة طارئة، أو لنزوة مستحدثة عملاً بقول الله عز وجل:

(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) النساء آية ٣.

هذا هو الإسلام بتشريعاته، وأحكامه، وخطوطه العريضة التي رسمها لدعم الأسرة وجمع شملها؛ فقد فرض لكل مشكلة علاجًا، ولكل مرض طبًا، ولكل داء دواء، حتى يخرج المجتمع الإسلامي مجتمعًا مثاليًا.

الفصل الثالث

المساواة الإنسانية في الأديان

كثير من الدول الغربية يتشدق بالديمقراطية والمساواة بين الإنسانية، كما أن بعض الدول الشرقية تنادي بما أسمته الشيوعية، وكل من الفريقين يدعي أن في مبادئه البلسم الشافي للإنسانية من جراح التفرقة وعدم المساواة، كما يدعي كل من الفريقين أن العالم مدين له بتقرير المساواة بين بني البشر.

لكن الواقع المؤلم يشير إلى غير ذلك، فدول الغرب وأكثرها إدعاء للديمقراطية الولايات المتحدة الأمريكية، نجد أن قوانينها تتضمن صراحة التفرقة بين بني الإنسان؛ فهي تنص في وضوح وبلا مواربة على التفرقة بين السود والبيض، وتتجلى هذه التفرقة في مختلف مظاهر الحياة وشتى أنواع المعاملات، ويمكن الوقوف على مدى ذلك عند زيارتك إلى أمريكا، فمدارس البيض غير مدارس السود، كما تحرم القوانين على السود ارتياد الأماكن التي يرتادها البيض، كما لا يجوز للأسود ركوب المواصلات التي يركبها الأبيض.

والدول الغربية الأخرى التي تدعي الديمقراطية، لا تقيم لتلك الديمقراطية وزنًا، والأمكنة التي توجد فيها الديمقراطية هي صفحات

الكتب وسطور المجلات المليئة بالدعاية. ففي الوقت الذي تقرأ المبادئ في الكتب تحض على الديمقراطية والمساواة الإنسانية نجد حقيقة مرة وأحداثًا أليمة تظهر ساطعة للعيان في معاملة تلك الدول لشعوب البلاد التي تستعمرها، أو التي تخضع لسلطانها؛ إذ تسقيهم كؤوس الهوان مترعة، وتطبق عليهم قوانين جائرة سنّتها خصيصًا لهم، ولن يستطيع شعب من تلك الشعوب المغلوبة على أمرها، والتي ترسف في قيود الذل والمهانة أن يعلن سخطه على تلك القوانين التي تغاير القوانين التي تطبق على رعايا تلك الدول المستعمرة، والتي تخالف ما أسمته هيئة الأمم المتحدة بمبادئ حقوق الإنسان، وإن اعترض أو سخط شعب على تلك القوانين وما يلاقي من جورها وشططها، فلا جزاء له إلا حرب الإبادة، والسجن، والتشريد، والنفي لأحراره وثواره.

وإذا قارنا دول الشرق بدول الغرب، وناقشنا المبادئ التي تنادي بها، ودرسنا الشيوعية؛ فنجدنا كالمستجير من الرمضاء بالنار. حيث نجد بالتطبيق العملي فروقًا فعلية بين طبقات الشعب، فأعضاء الحزب الشيوعي في أي بلد دخلتها المبادئ الشيوعية هم الذين يستأثرون بطيب العيش ورغده، والمراكز الممتازة في بلدهم، كما أنهم أصحاب الحق في التمتع بكل شيء، وما عداهم فهم أقل الدرجات التي تتدرج تنازليًا حسب إيمان الفرد للشيوعية وولائه للحزب الشيوعي؛ وذلك مقياسه يتوقف على مدى التقرب من أعضاء الحزب الشيوعي، حيث أن تزكيتهم تعتبر عاملاً أساسيًا في صلاحية الفرد، ولن تجد الشعب في تلك الدول سعيدًا إلا على صفحات الكتب الماركسية، وبين سطور النشرات التي

تؤخذ من مبادئ لينين، والتي توزع للدعاية في الخارج والداخل. هذا في داخل البلاد الشيوعية، أما في خارجها فالعداء مستحكم بين الدول الشيوعية وغيرها ممن لا يؤمنون بمبادئها، ومن جراء ذلك فالإنسانية مهددة بالحروب والدمار نتيجة تطاحن الديمقراطية المزعومة، والاشتراكية الموهوبة.

ولو بحثنا عن العلة في عدم تطبيق ما أسماه الغرب بالديمقراطية، وما أسمته بعض الدول الشرقية بالشيوعية، أو الاشتراكية كما يدعون، ولو نقبنا عن عدم تملك هؤلاء وأولئك بالمبادئ السماوية لوجدنا أن سبب ذلك يرجع إلى أمرين هامين.

أولهما أن الدول الغربية تؤمن بالدين إيمانًا سطحيًا، وذلك ظاهر في وجود الدين بمعزل عن الحياة السياسية، والسياسة هي كل شيء في الحياة، فلا صلة بين الدين والسياسة، وأن التغني بالدين والتدين ما هو إلا ميراث الأبناء عن الآباء كذكرى عزيزة يحتفظ بها على الأرفف وفي الأدراج، وعن ورائهم الشعب كله لا يعرفون عن الدين شيئًا إلا صلوات يؤدونها، ودعوات يقرأونها، وما بقى من أسرار بعد ذلك ونصوص وقواعد فهو للكهنة، والباباوات، والكرادلة فقط، لأنهم أصحاب حرفة الدين.

والأمر الثاني أن الدول الشرقية خرجت على الدين والتدين واعتبرتهما جريمة؛ وذلك لأنها أجرمت في حق الدين واعتبرته مخدرًا أو مفترًا يوقف عجلة التطور ويعوق الإنسان عن التقدم، فاستحدثت قوانين ومبادئ وضعية، وظنت أنها وصلت إلى الأفضل وانتهت إلى الأكمل،

وتناسب أن الإنسان مهما وصل به حد الإدراك لا يمكن أن يكون معصومًا من الزلل أو الخطأ، كما لا يمكن أن تكون قوانينه، أو نصوصه ومبادئه وتعاليمه خالية من الثغرات الناتجة عن الأثرة والأنانية التي جبل عليها.

والقوانين الوضعية لا تحوطها الضمانات الكافية المستوحاة من الضمير، ولا يحميها السياج الروحي الذي يعمل على التطهير الوجداني الذي يقف رقيبًا على المشرع فيحيا ضميره، ويخشى القوة التي تفوق قوة البشر. كما أن القوة الروحية تكون عصمة للحاكم والمحكوم على السواء من الزلل والخطأ، والقوانين الغير مبنية على طوية مطهرة روحيًا، فهي أشبه بالجسد الخالي من الروح، والمعرض للتغيير والتبديل طبقًا لمؤثرات الجو؛ فتلك القوانين معرضة بالتغيير والتبديل طبقًا للشهوات والنزوات، أما القوانين الإلهية فنجدها ثابتة لا تتغير، لأنها صادرة عن قوة لا تتغير، وتستطيع أن تغير، ومعنى ذلك أنك لا تجد لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً.

والمتتبع للأسباب التي حدثت بكل من الغرب والشرق على السواء إلى الفرار من الدين يجد أن ذلك نتيجة حتمية لما أدخله الكهنة والقادة المسيطرون على زمام الأمور الدينية، وخروجهم على القواعد الأصلية في تلك الأديان، مما جعل أتباع كل دين يولون الأدبار ويتلمسون الطرق التي تمكنهم من الفرار والفكاك من القيود والأغلال التي وضعها رجال الدين في أعناقهم.

فكهنة البراهمة أوجدوا نظام الطبقات بعد أن قسموا الشعب إلى قسمين أصليين: الأول هو المشترك في الأسرار، والثاني لا يعرف الأسرار؛ ولذا كان الكهنة، والقواد، ورجال الحكم هم المستأثرون بالمناصب؛ وذلك لأنهم هم المشتركون في الأسرار، والأسرار وقف عليهم دون غيرهم. أما أصحاب الحرف والتجار فكانوا من غير المشتركين في الأسرار، ولذا خرج بوذا بتعاليمه الجديد ثائرًا على الأوضاع؛ فنشر مبادئه الجديدة التي أضحت بعدها البرهمية شيئًا غير مذكور؛ إذ كانت أركان تعاليم بوذا الأساسية المساواة بين جسم الأمير وجسم المتسول، وكذلك نصت تعاليم بوذا على أن لا فرق بين روحيهما، مما جعل الأتباع يفرون من الديانة البرهمية وأتباع بوذا.

وإذا تتبعنا كل الأديان الوضعية نجدها سطورًا تشع أمثلة عليا في الأدب، والأخلاق، والمساواة، ولكن التطبيق كان يخالف النص، والفعل يخالف القول، وذلك راجع لخلو تلك المبادئ من الروح التي تدفعها، والقوة السماوية التي تحيطها بسياج من الضمير الحي. وأضف إلى ذلك أنانية الكهنة، ومدعي التدين، ومحترفي القيادة الدينية، كل ذلك جعل الديانات في وادٍ، والأتباع في واد آخر؛ إذ أصبح الدين في عرف الأتباع قضايا كلامية، وحججًا منطقية، وحكمًا وأمثال تقال في الخطب والمناسبات الدينية فقط.

وإذا تركنا الديانات الوضعية، والمبادئ الكنفوشيوسية، والحكم الأفلاطونية، وأمثال أرسطو، وعرجنا على الديانة اليهودية التي قسمت بني

إسحق إلى فئتين: أحداهما مباركة وهم أبناء يعقوب، والأخرى ملعونة وهم أبناء عيسو، ثم قسموا أبناء يعقوب إلى مرتبتين: الأولى من أبناء يهوذا وهؤلاء يكون الملك منهم ووقفًا عليهم، وباقي الأسباط ومنهم الكهنة، والخدام، والفعلة. ونجد أن أحبارهم، وكهنتهم، وكتبتهم، وفريسيهم قد حرفوا التوراة حتى جعلوها تعادي روح الوحدة الإنسانية.

حرف اليهود قول أنبيائهم بشأن المساواة، فقصرت التعاليم الإنسانية على اليهود فقط؛ فالرحمة، والعطف، والإخاء، والمودة وقف على فقراء اليهود فقط ومحرمة على الغرباء، وإن دل هذا إنما يدل على تفسير واحد، وذلك التفسير واضح فيما نراه من تعاون اليهود في جميع بلاد العالم على تحطيم مقومات الشعوب التي يعيشون فيها، كما يوضح لنا قسوتهم وإجرامهم في سلب فلسطين العربية من سكانها، وتشريد أصحاب البلاد الأصليين، وابتعادهم عن كل المبادئ الأخلاقية التي نادت بها الديانات والشرائع، وأن معاملة اليهود للعرب المقيمين بين ظهرانيهم لتمثل أبشع الجرم في حق المساواة الإنسانية التي شرعتها السماء فكانت فرضًا على أهل الأرض.

ولما كانت المسيحية رسالة السماء إلى الأرض التي جاءت في عالم محيت فيه آثار الرحمة، واتجه بكل إمكانياته إلى المال والمادة على حساب الإنسانية المعذبة؛ لذا جعلت كل تعاليمها للفت الأنظار إلى الآخرة وترك الدنيا؛ وذلك لأن السيد المسيح عليه السلام أرسل في بيئة مادية جشعة

هي بيئة اليهود الذين تركوا الشرائع وحولوا التعاليم السماوية إلى تعاليم أرضية خالية من كل مبادئ الإنسانية إلا على أنفسهم.

ومع مادية اليهود في الوقت الذي جاءت فيه المسيحية، كان حكم الولاة الرومان الذين جعلوا من المجتمع طبقتين متميزتين، طبقة الأغنياء والأشراف الذين استأثروا بكل شيء؛ استأثروا بالطيات ورغد العيش، وطبقة الفقراء الذين حرموا من كل شيء، حرموا من الكرامة وهي أبسط حقوق الإنسان.

لذلك كان جل تعاليم المسيحية ينصب على إطعام الفقير ورعاية البائس المحروم، والتحلي بالفضائل والأخلاق، والأمر بعدم التعدي على الغير. ومن هنا يمكن القول أنها دعت إلى المساواة.

إلا أن الذين قاموا على شئون الكنيسة قد حرفوا الحقائق، وبدلوا الإنجيل بأناجيل تثبت على المسيحية ما هي بريئة منها من تهم. فقد جاء في الأناجيل الأربعة منسوبًا إلى المسيح عليه السلام زورًا وبهتانًا: أنه جاء لخراف بني إسرائيل الضالة فقط، ثم نسبوا إليه أنه رفض أن يشفي أو يعطي البركة لامرأة سامرية، كما نسبوا إليه القول إلى تلاميذه ألا يدخلوا مدن السامريين والأمويين للتبشير والدعوة، مما حول المسيحية إلى يهودية جديدة وطائفية مستحدثة؛ حيث جعلوا التعاليم المسيحية وقفًا على اليهود فقط، مما أجبر العقلاء من المسيحيين على الإعراض عن تلك الأناجيل وتلك التعاليم، ومما جعل أتباع المسيحية يغفلون ما جاء فيها من تعاليم

الحب، والتسامح، والعفو. وذلك التحريف، والتبديل، والتغيير في التعاليم الأساسية للمسيحية أضعف الروح المعنوية والمبادئ السامية في نفس بني الإنسان من أتباع المسيحية.

وأن موقف الكنيسة ورجالها في الغرب، ذلك الموقف الذي إن وصف لا يوصف إلا بالدكتاتورية المتعجرفة التي سببت الثورة على الكنيسة، والتي انتهت بعزل الكنيسة عن المجتمع، وعزل الدين عن حياة الإنسان في الدنيا؛ فلا عمل للكنيسة إلا التدخل في الحريات الشخصية والتمسك بأتفه الأمور وأبسطها، بينما تترك جوهر الحياة ولب المبادئ عرضة لتيارات الإلحاد والفساد.

والكنيسة القيصرية، وقد سمحت لنفسي بأن أسمي الكنيسة في روسيا بالكنيسة القيصرية، لأنها ارتكبت في أواخر عهد القياصرة من الجرائم في حق الشعب ما يجل عن الحصر؛ فقد وقفت الكنيسة ورجالها مع القياصرة في واديهم، وسايرتهم في أهوائهم، وناصرتهم على الحصول على شهواتهم، ولذائذهم، وتركت الشعب كله في وادٍ آخر، مما جعله يتحلل من تعاليم الدين ويتجه إلى التعاليم الماركسية التي كانت تبدو في قالب معسول، مما جعل الشعب يسير وراء منطقها الخلاب لأنها مست منه الوتر الجريح، فظنها البلسم الشافي، وأنجرف في تيارها في غير تعقل، وقامت الثورة الحمراء فهدمت بنيان الكنائس ودور العبادة الأخرى على رؤوس من بنوها.

وانتقل المرض الماركسي من روسيا إلى جاراتها كيوغوسلافيا، ورومانيا اللتين كانتا معقل المسيحية ومنبع تعاليمها؛ فاجتاح الدين أمامه، وانتشرت العدوى الشيوعية في أكثر البلاد المسيحية، وذلك من جراء الخلل الذي أصاب الكنيسة بفضل كهنتها، فانتشرت الاشتراكية الكاذبة والمساواة المخادعة، فأوقعت بالمجتمع المسيحي في شرك الذين حاربوا الله ورسله، وحطموا كل دين واعتبروا الدين خرافة.

الفصل الرابع

المساواة الإنسانية في الإسلام

في فترة من فترات التضارب الخلقي، وعلى حين غرة من الملل والنحل التائهة في بيداء المبادئ القائمة على غير أساس، نظرت السماء إلى الأرض فمنحت الإنسانية وثبة لم يعرف التاريخ لها نظيرًا. ففي الوقت الذي كان بعض الناس يعتقدون أنهم من نسل الآلهة، والبعض يؤمن أن الدم الذي يجري في عروقه متخذ أصله ومنبعه من الدم الأزرق الملوكي النبيل كما كانت هناك بعض الأديان تفرق الشعوب إلى طبقات خلق بعضها من رأس الإله؛ وهي الطبقات ذات المجد الإلهي المستحقة لحياة العزة والسيادة، وبعضها خلق من قدمي الإله وتلك طبقة المنبوذين.

وفي الوقت الذي كانت تموج فيه شبه الجزيرة العربية بخضم من الفروق الشاسعة في الحسب، والنسب، والرزق. حيث كان هناك الأعز، والأذل، والشريف، والحقير، والغني، والفقير، والسيد، والعبد، والعظيم، والرذيل، الكل يعبد الوثن ويخضع للصنم، إلا قلة كتابية تؤمن بالله، ولكن إيمانها كان مشوهًا مشوبًا بالشرك، والتثليث، وعبادة المال. فكان لتلك الملل والنحل كهنة وأتباع لا حول ولا طول لهم.

في هذه الفترة وفي ذلك الوقت بعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام بالإسلام للسادة والعبيد، للعظيم والحقير، للغني والفقير، للناس كافة. جاء

مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ليقرر أهم مبدأ في الحياة طالما حرمت منه الإنسانية زماناً طويلاً، فجاء الإسلام يقرر مبدأ المساواة باللفظ، والنص، والتطبيق العملي. جاء ليقر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير، في المحيا والممات، في الحقوق والواجبات أمام القانون وأمام الله في الدنيا والآخرة. فكان مجيئه وبعثه منحة الله إلى عباده، جاء الإسلام ليقرر أن الإله لم ينسل أحدًا، ولم يكن له نسل، ولم يكن هناك أناس من سلالة الإله.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) سورة الإخلاص.

(ومَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ ولَدًا إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وعَدَّهُمْ عَدًا وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدًا) سورة مريم الآيات ٩٢-٩٥.

جاء الإسلام ليقرر أنه ليس هناك من هو بدم أزرق، أو من دم أبيض، أو من دم أخضر، وليس هناك من خلق من رأس الإله، وليس هناك آخر خلق من قدميه، فقد جاء يقرر وحدة الخلق من أصل واحد، ومعدن واحد، لا فرق بين الخليقة.

(ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ثُمَّ

إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) سورة المؤمنون الآيات ١٢-١٦.

(واللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ومَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى ولا تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ ومَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) سورة فاطر آية ١١.

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) سورة المرسلات الآيات ١٩-٢٢.

(فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ إنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) سورة الطارق الآيات ٥-٨.

جاء الإسلام مبعوثًا به نبي الله مُحَمَّد ﷺ ليقرر وحدة المنشأ، وأنه لا تفاضل بين الناس إلا بقدر ما يقدمونه من برهان على الإيمان بين يدي الواحد القهار:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) سورة الحجرات آية ١٣.

وإن السنة أحد ركني الإسلام اللذين ما إن تمسك بهما المسلمون فلن يضلوا أبدًا، قد أكدت ما أكده القرآن الكريم من المساواة في الإنسانية المشتركة. فقد وقف رسول الله ﷺ خطيبًا بين المسلمين في خطبة

الوداع وقال: (يا أيها الناس) إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب).

ولم يكن النبي ﷺ إلا معلمًا يلقن المسلمين مما لقنه الله، فالقرآن ينزل على النبي توجيها للمؤمنين في شخص الرسول صلوات الله عليه وسلامه، فتنزل الآيات البينات يلقنها النبي للفقراء والأغنياء، والعبيد مع السادة؛ بل يؤمر صلوات الله عليه أن يكون مع الذين يؤمنون بربهم ويدعونه بالغداة والعشي، وألا يشغل باله بالذين ختم الله على قلوبهم، وسمعهم، وأبصارهم مهما كانت منزلتهم:

(واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) سورة الكهف آية ٢٨.

ولقد كان الله سبحانه وتعالى يعاتب نبيه عتابًا شديدًا يكاد يبلغ حد التأنيب، إذا ما ساورته ساعة حرص بشري، طمعًا في هداية أحد العظماء من قريش، مثل ما حدث مع الأعمى الفقير (ابن أم مكتوم) ومع الوليد بن المغيرة، وكان سيدًا في قومه. حيث أن النبي ﷺ كان مشغولاً بهداية الوليد، وجاءه ابن أم مكتوم يطلب شيئًا من القرآن، والنبي مشغول عنه،

فألح ابن أم مكتوم على النبي، فتضايق النبي وعبس في وجهه، فنزل جبريل على النبي بعتاب الله عز وجل (عَبَسَ وتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ومَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ومَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى وأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى وهُوَ يَخْشَى فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ) سورة عبس الآيات من ١-١١.

وقد كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على تطبيق الإسلام نصًا وروحًا لأنه كان يقول دائمًا لأصحابه رضوان الله عليهم: (رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره). بل كان يطبق ذلك على نفسه، حيث قال لأصحابه (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فأنما أنا عبد، قولوا عبد الله ورسوله). وقد خرج يومًا فقام الجالسون تبجيلاً واحترامًا له، فقال ﷺ موجهًا القول إليهم: (من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار).

وأن حادثة أبي ذر الغفاري، والعبد الزنجي لأكبر مثل على ما رسمه الإسلام من إلغاء الفروق والطبقات ومساواته بين الناس، فقد قام نقاش بين أبي ذر الغفاري وعبده الزنجي، وفي زحمة من النقاش قال أبو ذر للزنجي (يا ابن السوداء)، فغضب النبي غضبًا شديداً وقال ﷺ والألم مرتسم على وجهه: (طف الصاع، طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى، أو بعمل صالح)، فوضع أبو ذر خده على الأرض وقال للزنجي: (قم فطأ خدي)، وفي رواية أخرى: (قم فطأ خد ابن البيضاء).

وما كان من الله ورسوله من أوامر طبقها الخلفاء الراشدون تطبيقًا فعليًا فترجموا النصوص إلى أعمال. وهاك عمر يقول: (يا أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندى من القوي حتى آخذ الحق منه).

ولقد كان عمر ﷺ يوصي الولاة بالمساواة بين الناس، والواجبات، والحقوق. ويحذرهم من الحيف، أو المجاملة، أو الخروج عن حدود الله التي رسمها الله، أو سنة رسول الله التي لم يتركها؛ فقد كتب إلى أبي موسى الأشعري: (من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بن قيس: سلام الله عليك. أما بعد... آسِ بين الناس في وجهك، وعدلك، ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك).

وقد أوصى عمر الخليفة الذي سيأتى بعده: (أجعل الناس عندك سواء، لا تبالي على من وجب عليه الحق ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، إياك والإثرة والمحاباة فيما ولاك الله).

ولم يكن عمر ﷺ يفعل هذا أو يأمر ذاك إلا مترسمًا خطة النبي ﷺ الذي جاءه أسامة بن زيد، وكان محبوبًا عند رسول الله يشفع في فاطمة بنت الأسود المخدومية، وكان قد وجب عليها حد السرقة لسرقتها قطيفة وحليًا، فأنكر الرسول ﷺ على أسامة شفاعته قائلاً: (أتشفع في حد من حدود الله؟)، ثم قام صلوات الله عليه وسلامه خطيبًا في الناس فقال: (إنما

أهلك من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت مُحَمَّد سرقت لقطعت يدها).

ولقد طبق عمر ﷺ هذا القانون مع عبد الله بن عمرو بن العاص، فقد كان بن عمرو يسابق أحد المصريين فسبقه المصري؛ فاغتاظ بن عمرو وضرب المصري الذي أقسم أنه لابد من أن يشكوه أمير المؤمنين، فرد عليه بن عمرو ما معناه أنك لن تفعل بشكواك شيئًا، فلن تثمر شكواك فأنا ابن الأكرمين، وفي زمن الحج ذهب المصري والتقى بعمر وهو سائر ومعه عمرو، وابنه وقدم شكواه، فظهر الغضب على وجه أمير المؤمنين واتجه إلى عمرو وقال: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟، (ثم أعطى الدرة للمصري وأمره أن يضرب ابن عمرو قائلاً: (اضرب ابن الأكرمين).

والمساواة في الإسلام لم تكن وقفًا على الرعية، بل كانت مساواة بين الراعي والرعية في الحدود والحقوق والواجبات، لا فرق بين حاكم ومحكوم. ففي الإسلام يجوز للمحكوم أن يوجه النقد اللاذع إلى الحاكم إذا ما خرج عن الحدود المرسومة.

فقد شكى يهودي علياً بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب، ولما جلس عمر للقضاء بينهما خاطب اليهودي باسمه وخاطب علياً بكنيته – وقد كان الخطاب بالكنية دلالة على التعظيم– فظهر الغضب على وجه علي. فقال عمر لعلي: أكرهت أن يكون خصمك يهوديًا؟ فرد علي قائلاً:

لم أكره ذلك، إنما كرهت أن لا تساوي بيني وبينه، فقد خاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي.

وتلك حادثة أخرى تبين أن عمر في مركزه كأمير للمؤمنين، وهيبته وشدته لم يمنع المسلمين من نقده؛ فبينما كان يخطب الناس سألهم: (ما رأيكم في أن أمير المؤمنين رأى فاحشة بين رجل وامرأة؟). فرد عليه علي بن أبي طالب قائلاً: على أمير المؤمنين أن يأتي بأربعة شهداء وإلا أقيم عليه حد القذف، ثم تلا قول الله تعالى:

(والَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ) سورة النور آية ٤.
فسكت عمر ولم يعين شخص المجرمين.

ولقد ساوى الإسلام بين الناس في كل شيء حتى في القتل، فقد قال الله في حق القتل العمد (النفس بالنفس) لا فرق بين أمير وحقير. وقال رسول الله ﷺ: (من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن أخصى عبده أخصيناه).

هذا موقف الإسلام الذي جاء دواءً ناجحًا لداء التفرقة، حرم على المسلمين احتقار الغير أو الإقلال من شأنه، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ولا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ) سورة الحجرات آية ١١.

نعم.. إنها كانت منحة السماء إلى الأرض ورحمة الله بعباده، كانت إنقاذًا للبشرية من ربقة الذل، إنما كانت رسالة الله التي أخرج بها عباده من ظلمات الطبقات إلى نور المساواة، أظهرت للناس حقوقهم فلا سادة ولا عبيد، إنما كان الجميع أمام الله سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى.

الفصل الخامس

المساواة الاقتصادية في الأديان

إن الأديان السابقة على الإسلام لم تعن بالاقتصاد على أنه المعنى المفهوم من الاقتصاد، فالاقتصاد بمعناه المفهوم أن يكون شاملاً لنواحي الحياة الخاصة بالمال، وتنظيمها تنظيمًا يشعل احتياجات المجتمع وضرورياته؛ فينظم الأعمال، والإنفاق، وطرق الكسب، وغيرها من السياسة المالية.

أما نظرة الأديان إلى المال فهي اعتبار المال على أنه كسب بالطبيعة، وإن كانت قد ضربت الأمثال الضئيلة إلى أن المال عصب الحياة، إلا أنها لم تضع نظامًا ينظم سياسته أو يحدد طرق كسبه؛ لذلك كانت سياسة المال تسير حسب مقتضيات الحاجة إليه، وكان تطور النظام تبعًا لتطور المجتمع دون أن يكون له سند، أو أساس يوحي بن دين، أو تشير إليه عقيدة.

فالأديان القديمة كما بينما سالفًا قصرت تعاليمها على الحب، والإخاء، والتعاون، والعطف على الفقير. أما من ناحية المال فقد أوصت بالعمل والكسب، ولكنها جعلت اهتمامها الأكبر مقصورًا على النواحي العقائدية أكثر من النواحي الدنيوية. وبذلك لم تكن هناك إشارات تفيد أنها اهتمت بتنظيم الميزان الاقتصادي، اللهم إلا بعض الفلاسفة أصحاب

المبادئ والمدارس الذين وضعوا المبادئ الخاصة بتداول السياسة الاقتصادية؛ وذلك أمثال أرسطو الذي وضع كتابًا عن السياسة ضمنه أشارة إلى تحريم الربا، وبالطبع كانت قاصرة لأنها لم تلم بجميع شئون السياسة المالية.

أما الديانات السماوية فمنها ما اهتم بالمال على الأساس الأول في الحياة، ولكن هذا الاهتمام تطور إلى عيب من العيوب الاجتماعية، حيث بلغ الاهتمام بالمال إلى أن وصل إلى درجة العبادة، فأصبح المال هو الهدف الأول والمعبود من دون الله، وبذلك طغت المادة على الروح؛ فتحجرت تلك الديانة وأصبحت مادية مطلقة، وتلك هي ديانة اليهود.

فاليهودية بأسفارها مليئة بالوصايا التي تشير إلى سياسة المال، وتنظيم السياسة الاقتصادية، ولكنها سياسة محرفة خرجت عن الوصايا التي جاء بها أنبياء بني إسرائيل، إلا فيما يختص باليهود أنفسهم. فقد جعلت سياسة المال والاقتصاد سياسة محلية داخلية على أحدث النظم الإنسانية، أما إذا خرجت تلك السياسة وأصبحت خارجة عن حيز اليهود فهي استغلال، وغش، وسرقة.

أما ما ورد في أسفار اليهود عن التوراة بعد التحريف، فهو اقتصاد مزيف، حيث لا مساواة فيه بين الإنسانية جميعًا. إنما جعل المساواة بين المجتمع اليهودي فقط. فقد بذلت الأسفار المواعظ والوصايا للشعب اليهودي، فأوصت بالعمل والكد. فقد جاء في العهد القديم ما يشجع

على العمل وينهي عن الكسل، ففي سفر الأمثال الإصحاح العشرين من الآية الثالثة عشر يقول سليمان: (لا تحب النوم لئلا تقتصر وتفتقر، افتح عينيك تشبع خبزًا). وفي نفس السفر يقول سليمان في أمثاله: (المشتغل بأرضه يشبع خبزًا، وتابع البطالين يشبع فقرًا). كما يقول سليمان: أما يد المجتهد فتغني ويد البطال تفقر.

وقد جاء في حق الربا وتحريمه ما يقول سفر الخروج: (إن أقرضت فضة للفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي). وفي سفر التثنية: (لا تقرض أخاك بربا؛ ربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شيء مما يقرض بربا). وفي سفر نحميا: (إني بكت العظماء والولاة وقلت لهم أنكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه).

والربا محرم فقط بين اليهودى وأخيه، أما فهو حلال بين اليهودى والأجنبي، ودليل ذلك ما جاء في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج: (للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرضه بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك).

وكل ما جاء بعد ذلك في التوراة فهو حض على الإنفاق على فقراء اليهود دون غيرهم، وأما كتاب التلمود الذي استحدثه اليهود خاص بأعمال الزراعة، والحصاد، والتجارة؛ فتشع منه الأنانية اليهودية. وسواء كانت التوراة المحرفة، أو التلمود المستحدث فهما يدلان دلالة قاطعة على عدم المساواة بين الإنسانية في الديانة اليهودية.

وجاءت المسيحية عقب الديانة اليهودية والعالم يذخر بالمبادئ المادية التي خلت تمامًا من كل القيم الإنسانية، بذلك لجأت إلى إعلاء قيمة الروح، والحد من قيمة المادة، والتقليل من شأن المال حتى تعود بالعالم إلى الحياة السليمة، وتنقي النفوس، وتطهر الوجدان.

فقد جاءت في العهد الحجري للنفوس، وفي العهد الروماني بقوانينه المنظمة، فلم تكن في حاجة إلى تنظيم الحياة الدنيا، بل كان كل رسالتها تنقية النفوس من الشوائب المادية والإلحادية؛ فنفرت من المال واكتنازه، وذلك وارد في إنجيل متى الأصحاح السادس الآية السادسة عشر: (لا تكتنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون). كما جاء في نفس الإصحاح: (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدرون أن تحترموا الله والمال). كما جاء في رسالة العبرانيين: (لتكن سيرتكم خالية من محبة المال، كونوا مكتفين بما عندكم).

وكانت المسيحية تحض المسيحيين على أن يعيشوا على الكفاف، كما جاء في الصلاة التي علمها لهم المسيح عليه السلام: (خبزنا كفافنا أعطنا اليوم)، كما أمرتهم أن يتركوا الدنيا ويتجهوا إلى الآخرة. وكانت تعاليم المسيحية تقلل من شأن الأغنياء؛ وذلك أن المسيح أشار في كلامه إلى أن دخول الجمل من سم الخياط أسهل من دخول الغني الجنة، بل كان يحتم على الذين يعملون بالتبشير أن يبيعوا كل ما يملكون ويتصدقوا به على الفقراء، ثم يبدأون العمل بالتبشير.

ولكن تعاليم المسيحية لم تمنع بعض القائمين على الشئون الدينية من أن يشرعوا في الاقتصاد، ولك أمثال (مارتن لوثر) الذي كتب فيما يختص بالربا وتحريمه وسماه بيع النسيئة، وهو ما يسميه الإسلام بيع النجاش؛ وهو يشبه المساومة والمضاربة التي تكون باتفاق التجار لرفع الأسعار. فقد قال لوثر: (أن هناك أناسًا لا تبالي بضمائرهم أن يبيعوا بضائعهم بالنسيئة مقابل أثمان غالية تزيد على أثمانها التي تباع بها نقدًا، بل هناك أناس لا يحبون أن يبيعوا شيئًا بالنقد، ويؤثرون أن يبيعوا سلعهم جميعًا على النسيئة)، ثم قال: (إن هذا التصرف فيه مخالفة لأوامر الله ومخالفة للعقل والصواب، ومثله في ذلك مثل مخالفة الأوامر الإلهية والأوامر العقلية أن يرفع البائع السعر بعلمه).

والخلاصة أنه لا يمكنك أن تجد للمال سياسة في تلك الأديان، بل تركت الأديان التشريع الاقتصادي لأنانية الإنسان، فيبغى القوى على الضعيف، ويشبع ذلك القوي ويجوع الآخر، ويلجأ الجوعان تحت تأثير جوعه إلى سرقة من أتخمه الشبع. وبذلك يختل نظام المجتمع، لأنه لا تنفع المثل العليا مع الجوع، وماذا تفعل مبادئ الأخلاق والروح مع البطن الخاوي الذي يمنع العقل عن التفكير إلا فيما يعود عليه بالشبع دون التفكير في أن هذا حلال وذاك حرام.

الفصل السادس

المساواة الاقتصادية في الإسلام

إن شريعة الإسلام تقرر المساواة بين الناس في شئون الاقتصاد، إلى شأن رفيع لم تصله أي شريعة أخرى، حتى أصبح المجتمع الإسلامي في الزمن السالف مجتمعًا مثاليًا. حيث شجع الإسلام على العمل ونظم العلاقة بين العامل، وصاحب العمل، وأعطى كل مجتهد جزاء اجتهاده من ثروات الحياة الدنيا.

ويفسح الإسلام المجال أمام الناس جميعًا للتفوق والطموح، ويحقق تكافؤ الفرص بين الناس في شئون الاقتصاد، كما يعمل على استقرار التوازن الاقتصادي فيحرص على تقليل الفروق بين الطبقات ويحول دون تضخم الثروات.

ويقيم الإسلام جميع العلاقات الاقتصادية بين الناس على دعائم من التعاضد، والمحبة، والأخوة، وإنكار الذات؛ وبذلك يكفل لكل فرد حياة إنسانية كريمة يشعر فيها أنه عضو في مجتمع فاضل يسوده التعاون والتآزر بين المسلم وأخيه، والمسلم وبني الإنسان جميعًا، وبذلك يكون قد ضمن أكبر مثل للضمان الاجتماعي والتكافل الإنساني. وصدق الله العظيم (ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) سورة يوسف آية ٤٠.

والاقتصاد في الإسلام أساسه العمل المنتج والعامل المخلص، فإذا ما صلح العامل صلح العمل، وصلاح العمل يحتاج إلى صلاح صاحب العمل. ولقد كان موقف الإسلام في ذلك رفيعًا للغاية حيث فرض على العامل واجبات، ومن له حقوقًا يلتزم بها صاحب العمل.

فقد حض الإسلام على العمل ونهى عن الكسل: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ) سورة الملك آية ١٥. وها هو رسول الله ﷺ يشيد باليد العاملة، ويعلن حب الله ورسوله للعبد الذي له حرفة يتكسب منها، أو صنعة تدر عليه كسبًا (تلك يد يحبها الله ورسوله)، (إن الله يحب العبد المؤمن المحترف)، (ما أكل أحدكم طعامًا قط خيرًا من عمل يده).

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الرقابة على العامل من الله ورسوله والمؤمنين؛ وذلك حصانة للعامل روحية تولد فيه خشية العقاب في الآخرة من الله عز وجل، وخيشة الجزاء الدنيوي من صاحب العمل (وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُهُ والْمُؤْمِنُونَ وسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) سورة التوبة آية ١٠٥.

وبعد أن عنى الإسلام بدفع العامل إلى العمل ووضع له نظام ذلك العمل وأحكم الرقابة الداخلية والخارجية عليه، فرض للعامل حقوقه لدى صاحب العمل، وقد ورد حديث قدسي عن الله عز وجل رواه المصطفى ﷺ عن ربه: (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل

باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره). وقد قال ﷺ: (اعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه).

ولم يترك الإنسان العامل مهما كان كسبه يتصرف في كسبه كيفما شاء، بل عنى إلى توجيهه إلى خير سبل الإنفاق والعدل في إنفاقه بتوجيه المال الوجهة الحسنة، فينتظم أمامه سبيل الحياة الصحيحة، وبذلك يحيا حياة سعيدة: (وآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ والْمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا إنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ويَقْدِرُ إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) سورة الإسراء الآيات من ٢٦-٣١.

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ) سورة الأعراف آية ٣١.

(والَّذِينَ إذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) سورة الفرقان آية ٦٧.

ولم يحرم الإسلام على الإنسان التمتع بنعم الله عليه، ولكن حرم الإسراف وأحل الإقساط والعدل.

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ والإِثْمَ والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) سورة الأعراف الآيات ٣٢-٣٣.

ويقول الرسول ﷺ: (إذا أتاكم الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته).

والإسلام كما ترى طالب بالقصد في الإنفاق، لأن المال كثيراً ما يكون مفسدة، والمفاسد وليدة الترف الخارج عن الحد المألوف، ولم يغفل الإسلام هذه الناحية فقد أشار إلى مفاسد المترفين. (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) سورة سبأ آية ٣٤-٣٥.

(وقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ويَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) سورة المؤمنون آية ٣٣.

ولم يقف ضرر المترفين على أنفسهم وحدهم، بل امتد ضررهم إلى عشيرتهم وأهلهم، فخدعوهم وجروهم إلى الضلال، وأجبروهم على العصيان، ووجهوهم إلى الكفر والفسوق، حتى أطلق على هؤلاء الأتباع

أنهم ضعفاء، وقد روى القرآن الكريم ما جاء على لسان هؤلاء الضعفاء من ندم على ما فات وطاعتهم لسادتهم وكبرائهم:

(وقَالُوا رَبَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ والْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) سورة الأحزاب آية ٦٧، ٦٨.

وقد سمى الرسول ﷺ بيوت المترفين ببيوت الشياطين؛ وذلك في الحديث الذي رواه أبو داود: (تكون إبل الشياطين، وبيوت الشياطين؛ فأما إبل الشيطان فقد رأيتها، يخرج أحدكم بنجيبات قد أسمنها، فلا يعلو بعيرًا منها ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله، وأما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التي تسير الناس بالديباج).

ويقول الله عز وجل: (وكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً وكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ) سورة القصص آية ٥٨.

(وإذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) سورة الإسراء آية ١٦.

ومن جرائم المترفين الربا، وقد حرم الإسلام الربا لأنه جزء من مفاسد المجتمع؛ حيث تستغله فئة قليلة أوتيت من الله عز وجل فضلاً من السعة، ضد فئة أجبرتها ظروف الحياة وكلكل الدهر على أن تقترض ما قد تحتاجه لتذلل ما يعترضها وما تفاجأ به من تصاريف القدر.

فالمرابي شخص يستغل حاجة الناس وعوزهم فيتحكم فيهم وفي رقابهم، وذلك بتحميلهم ما لا طاقة لهم به، يأتيه الشخص وهو في حاجة إلى بعض المال على أن يرده إليه بعد مدة معينة، فيقدم له المبلغ المطلوب على أن يقيده بقيود تجبره على رد المبلغ المقترض مع زيادة فاحشة. وكم خربت بيوت كانت قائمة نتيجة التعامل بالربا، وكم من أغنياء انتزعت أملاكهم انتزاعًا من أصحابها فأصبحوا فقراء نتيجة التعامل بالفوائد المركبة التي ابتدعها المستعمر وفئة قليلة من المستغلين الجشعين؟.

ولذلك كان من أهم ما عنى به الإسلام وحرمه تحريمًا قاطعًا ذلك الداء الوبيل؛ ألا وهو الربا الذي يعمل على تحطيم أركان الأسر ثم المجتمع، فقد قال الله تعالى:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وأَحَلَّ اللَّهُ البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وأَمْرُهُ إلَى اللَّهِ ومَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ واللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) سورة البقرة الآيتان ٢٧٥-٢٧٦.

ويقول رسول الله ﷺ: (لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، ثم قال: وهو سوء).

وعند تحريم الإسلام للربا لم يغفل تنظيم سد حاجات الناس والمحتاجين، ووضع نظامًا للقروض، وحث على الإقراض بالثواب الجزيل

يوم القيامة، وتوعد المقترض الذي لا يرد ما اقترضه للعذاب الأليم، فقد قال الله سبحانه وتعالى يحث الدائنين على الصبر على المدينين حتى يفرج الله عليهم، كما أمرهم بإعطاء القروض للمقترضين في قوله عز وجل:

(وإن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) سورة البقرة آية ٢٨٠.

وقال رسول الله ﷺ: (الحسنة بعشر أمثالها والقرض بسبعين)، ولما سئل عمر بن الخطاب عن السبب في جعل القرض بسبعين قال: آخذ الحسنة محتاج، فرض الله له الصدقة، أما آخذ القرض لم يفرض الله له صدقة وحاجته طارئة ربما جعلته في عداد الفقراء لو لم يقترض، فبقرضه يكون قد منع عبدًا من عباد الله أن يفقر. وقد روى البخاري والترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (رحم الله رجلاً سمحًا إذا با ع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى) وقد بنى هذا الحديث على الخط العريض الذي رسمه الله سبحانه وتعالى في قوله في سورة البقرة في آية ٢٦٣.

(قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ومَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى واللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) سورة البقرة ٢٦٣.

كما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال (من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه). وقد روى الترمذي عن النبي ﷺ: (من أنظر معسرًا ووضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله).

وأما في وجوب سداد القرض فقد وردت أحاديث كثيرة نأخذ منها على سبيل المثال ما رواه البخاري أن رسول الله ﷺ قال: (فمن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله). وقد روى الخمسة عن رسول الله ﷺ: (مطل الغنى ظلم). وقد جاء رجل رسول الله ﷺ قائلاً: (أرأيت أن قتلت في سبيل الله يكفر الله عني خطاياي؟) فقال رسول الله ﷺ: (نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر)، ثم قال الرجل كيف قلت؟ فأعاد عليه، فقال عليه الصلاة والسلام: (نعم إلا الدين فإن جبريل أخبرني ذلك).

وحينما أحل الله البيع وحرم الربا أحاط البيع والشراء لأنهما عمد الحياة الاقتصادية بسياج متين، ولقد اشترط الإسلام خلو البيع والشراء من الغش، والكذب، والنجاش، والمنافسة غير المشروعة والمضاربة التي تؤدي إلى رفع السعر، والتآمر، والتواطؤ بين التجار ضد المستهلك، وأن يكون ذلك البيع مبنيًا على البيان، والصراحة، وإظهار عيوب البضاعة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: (البيعان بالخيار ما لم يفترقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وأن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما). وقال عليه الصلاة والسلام: (من غش أمتي فليس مني) وقال صلوات الله عليه: أنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به. وقال سلام الله عليه: (لا يكسب عبد مالا حرامًا فيتصدق منه فيقبل منه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث). وقد

روى الرسول صلوات الله عليه حديثًا قدسيًا عن ربه قال: (لا تناجشوا ولا تنافسوا ولا يبع بعضكم على بيع بعض).

وإتمامًا لتنظيم الحياة الاقتصادية، قد حرم الإسلام احتكار ضروريات الناس والتحكم في أقواتهم، وحبسها طمعًا في بيعها في السوق السوداء ابتغاء الكسب الحرام، حيث أن كل كسب يأتي نتيجة الاحتكار، أو التجارة في السوق السوداء، فهو حرام. وهؤلاء الجشعين من التجار المحتكرين قد برئ الله ورسوله منهم يوم القيامة، لأن القاعدة الإسلامية بنيت على القول: (لا ضرر ولا ضرار). وإليك رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحتكرين والتجار الجشعين: (من احتكر طعامًا أربعين يومًا فقد برئ من الله وبرئ الله منه) رواه الإمام أحمد في مسنده. وقد روى مسلم وأبو داود والترمذى عن النبي ﷺ أنه قال: (من احتكر فهو خاطئ).

وإن كثيرًا من الناس ليتخذون من الوصول إلى مآربهم سواء عن طريق الاحتكار، أو المضاربة شتى الطرق الملتوية للوصول إلى غاياتهم دون الوقوع تحت طائلة القانون؛ سواء كان بالرشوة، أو المحسوبية لدى القائمين على أمور تموين البلاد؛ وبذلك يحصلون على ما ليس لهم حق فيه، أو يسبقوا غيرهم من أصحاب الحقوق؛ وذلك بالصلات المحرمة بمن في يدهم الأمر، الذين أضعف الله نفوسهم ويتناجون بالإثم والعدوان. ولذا نجد الإسلام كان حريصًا كل الحرص فحرم ذلك وتوعد الراشي، والمرتشي، والمحسوبية بالعذاب الأليم؛ حيث قال الله تعالى في كتابه العزيز:

(ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) سورة البقرة آية ١٨٨.

وكم بلى الناس في كل مكان وكل زمان بالحكام الذين لا خلاق لهم، والذين استغلوا نفوذهم وسلطانهم واتخذوا من وظائفهم طريقًا للكسب غير المشروع، مما جعلهم يثرون على حساب المجتمع الذي يتلظى بنار الجوع، والفقر، والجهل، والمرض. ولاهم لهؤلاء إلا جمع الأموال واكتنازها، لا ينفقون منها بل يجعلونها أداة لإذلال المجتمع وهتك عرضه؛ فينطبق عليهم قول الله تبارك وتعالى:

(والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ولا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) سورة التوبة الآيتان ٣٤، ٣٥.

هؤلاء الحكام الذين تجردوا من كل خلق كريم وحرموا أصحاب الحقوق من الحصول على حقهم، حتى اختل الأمر وأصبح صاحب الحق هو صاحب الترضية للحاكم، والمحسوب أو المنسوب لذلك الحاكم.

وقد كان الإسلام حريصًا كل الحرص على أن يتلاشى هذا المرض الخطير من المجتمع الإسلامي، فقد أمر بمحاسبة الحكام والولاة على مصادر الزيادة في أموالهم التي كانوا يملكونها قبل توليهم مناصبهم، ومصادرة ما لم يستطيعوا إثبات مصدره، أو كان مصدره استغلال النفوذ والسلطان. وإن

التاريخ الإسلامي لغني عن البيان، فهو مليء بالحوادث التي تسجل مواقفه الخالدة في هذا الشأن، وأنه ليمكننا أن نقص بعضًا منها حدث في زمن النبي عليه الصلاة والسلام، وبعضها حدث في زمن الخلفاء الراشدين الذين ساروا على نهج الرسول واتبعوا أمر الله ورسوله.

فقد أقبل يومًا على النبي ﷺ ابن اللتية وهو من الأزد، وكان النبي قد ولاه على الصدقة، فلما جلس الرجل بين يدي النبي قسم ما معه وقال: (هذا لكم وهذا أهدى لي)؛ فغضب النبي ﷺ ثم قام خطيبًا في الناس وقال: (أما بعد، فإني استعمل أناسًا منكم على أمور مما ولاني الله، فيأتي أحدكم فيقول هذا لكم وهذه هدية أهديت لي، فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأخذ منه شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تبعر)، فترك ابن الليتية ما أهدى إليه.

وفي عهد عمر كان يصادر ما كان يكسبه الولاة من أعمال لا يجوز لهم الاشتغال بها؛ كالتجارة وما إليها والهدايا، وكل ما اكتسبوه نتيجة استغلال النفوذ، وقد فعل مع ولاته على البصرة، فصادر جميع ما شك فيه أنه جاء إليهم عن طريق مناصبهم التي ولوها.

ويذكر لعمر قصة في هذا الشأن مع أبي هريرة، وكان والي البحرين، فبلغه أنه أثرى في أثناء ولايته، فصادر جميع ما شك في مصدره منها، وقد دار بينهما الحوار الآتي:

عمر: استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغى أنك لديك أفراسًا بألف وستمائة دينار.

أبو هريرة: كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت.

عمر: حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل الله

أبو هريرة: ليس لك.

عمر: بلى، والله أوجع ظهرك؛ ثم قال إليه بدرته فضربه حتى أدماه.

أبو هريرة: احتسبتها لله.

عمر: ذلك لو أخذتها من خلال وأديتها طائعًا، تجبي الناس لك لا لله وللمسلمين؟ ما رجعت بك أميمة إلا برعية الحم.

وقد قاسم عمر بن الخطاب رضى الله عنه سعد بن أبى وقاص والي الكوفة ماله حين شك في مصدره، واتخذ معه ما اتخذ مع أبي هريرة وولاه البصرة. وقد حدث مع عمرو بن العاص والي مصر ما حدث مع أبى هريرة وغيره؛ فإنه قد بلغ عمر بن الخطاب أن عمرو بن العاص قد أصاب أثناء ولايته على مصر، فدارت بينهما الرسائل الآتية.

رسالة عمر: إنه فشت لك فاشية من متاع، ورقيق، وآنية، وحيوان لم تكن حين وليت مصر.

رد عمر: إن أرضنا مزدرِع ومتجر، فنحن نصيب فضلاً عما تحتاج إليه نفقتنا.

رسالة عمر: إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إلى كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظنًا، وقد وجهت إليك مُحَمَّد ابن مسلمة ليقاسمك مالك؛ فأطعه طلعه، وأخرج إليه ما يطالبك، به وأعفه من الغلظة عليك فإنه برح الخفاء، فأذعن عمرو وأطلع محمدًا بن مسلمة على كل شيء، وأخرج إليه ما طالبه به وتركه يقاسمه ماله.

وقد حرم الإسلام اغتصاب حقوق الناس سواء عن طريق الحكام أو المحكومين، ولم يكن عمر حين كان يحاسب الولاة والحكام يغفل محاسبة نفسه وبيته. فقصة امرأته التي اشتهت الحلوى، وأدخرت من قوتها ثمنها وأعطته لعمر لشراء الحلوى، فما كان من عمر إلا أن أخذ ثمن الحلوى وضمه إلى بيت المال قائلاً: إن هذا فضل من قوتنا فبيت المال أولى به، فمثل حى لما كان عليه حكام المسلمين من عدل وخوف من الله وخشيته في السر والعلن، وكيف لا يحدث ذلك من عمر وهو الذي آلمته معدته من كثرة أكل الزيت في عام الرمادة، فضربها بكفه قائلاً لبطنه: (قرقر أو لا تقرقر فلن تأتدم السمن حتى يخصب المسلمون).

وقد حرم الإسلام اغتصاب الحقوق؛ سواء كان الاغتصاب من الحاكم للمحكوم، أو المحكومين بعضهم بعضًا، فقد قال رسول الله صلى الله عله وسلم: ومن اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل

وهو عليه غضبان. وقال عليه الصلاة والسلام: (من ظلم من الأرض شيئًا طوقه الله به من سبعة أراضين).

ورب يخلط بعض الناس بين معنى الاغتصاب، ومعنى التأميم والمصادرة؛ فالاغتصاب مبني على الأثرة والأنانية الفردية، كطمع فرد في مال أخيه، أو حاكم نظر إلى ما متع الله به أحد الناس من نعم فأراد اغتصابها لصالحه. أما التأميم والمصادرة العامة فهي لصالح المجموع بناء على القاعدة التي رسمها رسول الله ﷺ: (الناس شركاء في ثلاث: الماء، والكلأ، والنار).

وهذه القاعدة تفيد أن الناس جميعًا لهم حق الاستفادة من هذه المواد الطبيعية بجانب ما فرضه الله فرضًا من الإقبال على النعم: كالهواء والعلم. وقد روى الإمام أحمد في مسنده وأخرجه أبو عبيد: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتطع أرضًا يقال لها النقيع بالمدينة فيها يخل المسلمين، كما أن ابن الخطاب رضى الله عنه اقتطع أرضًا بالربدة وجعلها مرعى). واعتقد أن هاتين الحادثتين تبينان أن للحاكم حق التأميم والمصادرة إذا كانت لصالح المجتمع، مع تعويض الفرد تعويضًا ماليًا عما أصابه من جراء التأميم في سبيل المجتمع.

وما دام التأميم فيه نفع للأمة جميعًا فهو خير، ولقد وصى الإسلام إلى حد أبعد من ذلك، فلقد أجاز الإسلام انتزاع الملكية بشرط أن تكون للمنافع العامة، أو يكون فيها ضرر للناس. وقد ورد عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم هذا القانون عندما كان لابن جندب نخل على دار أحد الأنصار، فكان كلما جاء نخلة يؤذي صاحب الدار، فشكاه هذا إلى النبي ﷺ الذي أمر بخلع النخل بمعرفة الأنصارى بعد أن عرض عليه أن يهبه أو يخلعه، فأبى.

وبجانب النظم السباقة التي وضعها الإسلام في المساواة الاقتصادية، قد وضع نظمًا لتلك المساواة لا تقل أهمية عن النظم السابقة، فقد شرع نظام الميراث الذي يعمل على توزيع الثروات وتقليل الفروق بين الطبقات؛ وذلك بتفتيت رؤوس الأموال، ورسم لذلك حدودًا ونظمًا يمكن للقارئ الرجوع إليها في كتب الفقه، هذا القانون الذي عجزت أحدث القوانين عن أن تأتي بمثله، بل اضطرت بعض الدول أمام جلال تشريعه أن تأخذ منه. ولكفالة وضمان تنفيذ التشريع جعل نظام الميراث حدًا من حدود الله التي أمر بها وأشار إليها في قوله تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ومَن يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ ويَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ولَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ). سورة النساء الآيتان: ١٣-١٤.

وقد حرم الإسلام الوقف الأهلي، وذلك منعًا لتضخم الثروات ووضعها في يد أحد الملاك، حيث يشذ بعض الناس فيقف ثروته على أحد أولاده دون الآخرين، أو لسبب من الأسباب يوقف ماله وثروته على أحد

الخدام مع حرمان أصحاب الحق الأصلي في الميراث، وبذلك تكون الثروة كلها في يد شخص واحد ويعيش الباقون في فقر مدقع، فتتولد الضغائن والأحقاد. وقد تنبهت الحكومة الرشيدة عقب ثورة سنة ١٩٥٢ فألغت الوقف الأهلي بمقتضى القانون رقم ١٨٠ لسنة ١٨٥٢م، وبذلك تكون الثورة قضت على عيب طالما تحكم نظار الوقف في المستحقين، وتكون قد سايرت الإسلام وطبقت قوانينه نصًا وروحًا، فوضعت الأمور في نصابها، وتلاشى عيب اجتماعي خطير له أثره السيء في المجتمع.

وإن كان الإسلام قد أجاز الوصية، فقد أوقف جوازها على غير الورثة، وكان الجواز له هدفه السامي في حقوق المجتمع، فكثيرًا ما يقوم أحد الخدم الأوفياء بخدمة سيده مدة طويلة بأمانة وإخلاص، فيرى سيده أنه من الوفاء أن يوصي له ببعض ماله. كما أجاز الإسلام الوصية للخير كبناء المساجد، والمدارس، والمستشفيات، أو الإنفاق منها على الفقراء. وفي الواقع تعتبر الوصية من تراث الإسلام الاشتراكي الذي حرمها على الوارث حتى لا يحصل أحد الورثة على أكثر من نصيبه، مما يجدد عيبًا في المجتمع وهو الحقد والعداء بين أفراد الأسرة. وقد فرق الإسلام ووضع النظم التي تبين الميراث والوصية في قول الله تعالى عز وجل:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وإِن كَانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ولأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ ولَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ ولَدٌ ووَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وصِيَّةٍ يُوصِي

بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ولَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ ولَدٌ فَإن كَانَ لَهُنَّ ولَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ولَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ ولَدٌ فَإن كَانَ لَكُمْ ولَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وإن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ ولَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وصِيَّةً مِّنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) الآيتان ١١، ١٢ من سورة النساء.

وبجانب تنظيم الإسلام للمجتمع أفراداً وجماعات قد نظم ما يجب على الأفراد نحو الأمة مما ييسر أعمال الحكومة، ففرض عدة طرق ضرائبية يقوم بتحصيلها بيت المال لينفقه على الخدمات العامة التي تخص المسلمين في البلاد الإسلامية، فكانت هناك عدة ضرائب نذكر منها:

ضريبة الخراج: وتفرض على الأرض التي فتحها المسلمون وتركوها في أيدي أصحابها من غير المسلمين، بشرط أن يكون الصلح قد تم بين المسلمين، وأصحاب الأرض بدون حرب.

ضريبة الركاز: وتفرض على ما يستخرج من باطن الأرض: كالمعادن الصلبة والسائلة، وقد فرض الإسلام الضريبة بمقدار خمس قيمتها.

ضريبة الصيد: وتفرض على الصيد البري والبحري، والاسفنج، والأسماك، والحيوان، والمرجان، والعنبر، وغيرها؛ وضريبة ذلك قيمة الصيد.

وقد أجاز الإسلام للإمام أو الحاكم فرض ضرائب عند الحاجة وإلغائها عند انقطاع تلك الحاجة التي أوجبت فرضها.

ونظام الزكاة في الإسلام يختلف عن نظام الضرائب وهو خير النظم الاجتماعية، فهو ضمان اجتماعي جعل الله به في أموال الغني حقًا معلومًا للسائل والمحروم، وللزكاة أنواع متعددة منها:

زكاة الزروع: وتقدر بقيمة العشر للأرض التي تروى من الينابيع، أو الأنهار دون الحاجة إلى استعمال آلات رافعة، ونصف العشر للأرض التي تحتاج إلى جهد أو آلات لرفع ماء الري.

زكاة الأنعام: ويمكن الرجوع إلى تفاصيلها في كتب الفقه الإسلامي.

زكاة الذهب والفضة: ويدفع عنها ربع العشر على شرط أن يمضي على ملكيتها عام كامل.

زكاة عروض التجارة: وهذه يمكن الرجوع إلى تفاصيلها من كتب الفقه الإسلامي. وتنفق الزكاة في أبواب حددها القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ والْعَامِلِينَ عَلَيْهَا والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفِي الرِّقَابِ والْغَارِمِينَ وفِي سَبِيلِ اللَّهِ وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) سورة التوبة آية ٦٠.

وقد فرض الإسلام عدة أبواب مالية أخرى لتدعيم التكافل الاقتصادي بين المجتمع الإسلامي، فأوجب زكاة الفطر، والضحايا، والهدايا. كما أوجب عدة غرامات مالية على حلف اليمين، أو فطر رمضان؛ وذلك لتوسيع أبواب الإنفاق على الفقراء والمساكين. وقد بين ذلك في حكم آياته فقال عز وجل:

(لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ولَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إذَا حَلَفْتُمْ واحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة المائدة آية ٨٩.

كما فرض الإسلام غرامة مالية كبيرة على من يظاهر امرأته ويريد الرجوع إليها، وذلك واضح كل الوضوح في قول الله تعالى الذي قصد به الرحمة بعباده الفقراء:

(والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ وتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ولِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) سورة المجادلة الآيتان ٣ ٤ .

وقد رسم الإسلام خطوطاً أخرى في التكافل الاجتماعي خطط تخطيطًا واسعًا لتكافل الأرحام، وذلك بقول الله عز وجل:

(واعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا وبِذِي القُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ والجْارِ ذِي القُرْبَى والجْارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالجَنْبِ) سورة النساء آية ٣٦.

وحديث رسول الله ﷺ القائل: (لا يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع)، لخير دليل على التكافل الاجتماعي. وقد زار رجل ابن عباس ووجده قد ذبح شاة وقام بطهيها، ثم أرسل غلامه ببعضها إلى جاره اليهودي فدهش الرجل وظهرت الدهشة على وجهه فعرف ابن عباس وقال له قال ﷺ: "مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " ويقول الله عز وجل.

(وأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) سورة الحديد آية ٧.

هذه هي المساواة الاقتصادية في الإسلام، هذه هي الرسالة التي منحها الله للإنسان ووضعها بين يدي المسلمين نعمة منه. قال تعالى: (لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) النساء آية ١٦٥.

فقد وضع الإسلام للبشرية نظمًا وشرع لها شرائع تكفل لها السعادة في الدارين: الممر والمقر، ووضع للفرد أسسًا يسير عليها، وبين له طرق الكتب، والانفاق، والعمل، والحياة الاجتماعية. كما أوقفه على ما يضره؛ فحرمه عليه وهيأ له أسباب حياته فردًا وفي أسرته، كما خطط له العلاقة بمجتمعه.

ووضع للمجتمع الأساس السليم الذي ينظم الحقوق والواجبات بين الفرد وأخيه، والحاكم والمحكوم، وكفل له نظامًا اقتصاديًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لكي يكون للمجتمع الإسلامي العزة والسيادة، فلا استغلال لرأس المال في الإسلام، ولا تحكم، ولا غش، ولا رشوة، ولا احتكار، ولا بغي. كما أوجب العدل، والإحسان (وإيتَاءِ ذِي القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ والْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) سورة النحل آية ٩٠.

الباب الرابع

الحرية

الفصل الأول

الحرية في الأديان

المفروض في الحرية أن تكون الأساس لجميع ما رسمته الأديان من عقائ،د ونظ،م وتشريعات. ولكن ما بيناه في هذا الكتاب يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن للإنسان حرية في عقيدته، أو دينه في الأديان السابقة على الإسلام؛ فلم يكن حرًا في التفكير فيما يدين به ، وحتى كان محرمًا عليه إبداء رأيه في كنه الإله الذي يعبده ، وكان من الكفر أن يبحث في نظم عبادته أو تفصيل ما شرع له.

فكيف يمكننا أن نقول أنه كان في الأديان السابقة أي نوع من أنواع الحرية، حيث انعدمت الحرية الفكرية حينما حرم على الإنسان التفكير فيما يعبد، أو فيما يعلم، وما لا يعلم. وقد انقرضت الحرية السياسية حين تحكم الكهنة الطغاة الذين كان قولهم من قول الآلهة، فلا مناقشة لما يقولون ولا نقض لما يحكمون به، كما كانت الحياة خالية من الحرية المدنية، لأن الإنسان كان عبدًا لما يمليه عليه القائمون على شئون الدين، ومن هنا يمكن القول

بإنعدام الحرية الدينية، لأن ذلك الإنسان نفسه لم يكن عامًا فيوليه الدين حقوقا عامة.

ولن يغيب عن البال الحكم على سقراط بشرب السم وموته شهيد الحق، لأنه أفشى أسرار الوحدة وخلود الروح ، واعتبر سقراط كافرًا، وسر كفره أنه لم يشترك في الأسرار أو في القسم الذي يربط به المشتركون في الأسرار، وأن موته ليفسر لنا انعدام الحرية الفردية، سواء كانت في الأديان الوضعية، أو المبادئ الفلسفية.

والديانة اليهودية التي حرمت على الشعب اليهودي مناقشة الأحبار، والكهنة، والفريسيين. وأن القارئ لأسفار بني إسرائيل لن يرى ثورة من الشعب على أنبيائهم وكهنتهم إلا في سبيل المأكل والمشرب، أو ما لقوه في سبيل الهجرة من المشقة، كانوا كالسائمة لا يفعلون إلا ما يؤمرون، عاشوا حياتهم لا يطلبون إلا بما تنادي به البطن مدعين أنهم متمسكين بحريفية الأسفار.

ولكن اليهودية أطلقت الحرية في ناحية واحدة: هي التفكير واستغلال كل الطاقات لاستعباد الشعوب وتقويض مقاوماتها، ولكن ذلك لا يخرج عن الحدوود التي رسمتها الصهيونية العالمية، ومن خرج على تعاليم الصهيونية فهو كافر ومستحق النقمة، واللعنة، والطرد من الوسط اليهودي.

وجاءت المسيحية عقب اليهودية فجاءت تدعو للحرية الفكرية، حيث وجهت الأنظار إلى السماء بعد أن هجرتها، ودعت إلى الاتجاه إلى الله وتحرير العقول من أغلال المادة بعد أن تجردت تلك العقول وخويت النفوس من الروحانية وتحولت إلى مادية جامدة لا روح فيها.

وبعد أن رُفع المسيح عليه السلام، اختل نظام الدعوة التي جاء بها، فاستجدت الأفكار، وحرفت دعوة المسيح وشوهت المسيحية، فكثرت فيها الآراء الفلسفية، وأمسك الكهنة بزمام الأمور، وخرجت العقائد الكنسية فاحتلت المراكز، واستولت الكنيسة على مقاليد السلطة، واستغلت الشعب المسيحي أسوأ استغلال، مما أدى إلى وجود طوائف خارجة على الكنيسة.

ولما شعرت الكنيسة بوجود المفكرين الذين خرجوا عما رسمته من قواعد وأصول رأت في ذلك ما يهدد سلطانها وضعف مركزها أمام تيار الفكر الحديث والعلم الآخذ في النماء، فانطلقت تقاوم وتجاهد تلك الأفكار وذلك العلم، فحاولت تكميم الأفواه البريئة وتعطيل الأفكار الحرة التي تناقض النظريات البالية العتيقة.

ومن هنا كان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر من ذلك التاريخ، فاصطنعت نظرياتها عن الأرض، والأفلاك، والمواد بنظريات العلم القائمة على الدرس، والتمحيص، والتجربة.

ولما كانت نظريات العلم يؤيدها التجربة والواقع، وفتوحات العلم لا تدع مجالًا للشك في عظمة هذه الأداة المستجدة، فقد نشأت أجيال من العلماء والمفكرين تكره الكنيسة وتحتقرها، وأصبح هؤلاء العلماء والمفكرين يكونون في نفوسهم العداوة والاشمئزاز للدين ورجاله.

ولذلك كانت هناك جفوة بين الدين والعلم، وبين الكنيسة والفكر في حياة الأوروبين. وأما في الشرق فلم تكن هناك عداوة بين المفكرين ورجال الدين؛ وذلك لأن رجال الشرق عاشوا مُسلِّمين القياد لرجال الدين الذين تركوا لهم الحبل على الغارب إلا فيما يمس سلطان الكنيسة وقداستها، مما ولّد شبه جمود فكري في الشرق. أما الإسلام فقد قدس الحريات واعتبرها الدعامة الأولى في تصحيح العقائد وتطبيق التشريع، وكان حريصا على تطبيق الحرية في شتى شئون الحياة يمارسها الفرد سواء كانت حرية فكرية، أو سياسية، أو مدنية، أو دينية؛ وبذلك يصبح المسلم عضوًا ناضجًا في المجتمع، يفيد ويستفيد، وبه يكتمل نظام المجتمع الإسلامي.

الفصل الثاني

حرية الفكر الإسلامي

حرية الفكر في الإسلام تنقسم إلى قسمين: الأول حرية الرأي، والثاني حرية التفكير العلمي؛ فقد كفل الإسلام للمسلم الحرية الفكرية بقسميها، وقد أعطاه، بل أوجب عليه أن يبدي رأيه بأي وسيلة يشاء، وأن يجهر بما يرى، فلا يخاف في الحق لومة لائم، وتوعد من يكتم حقا في صدره، أو يحبس رأي فيه نفع للأمة في مجموعها العذاب الاليم يوم القيامة، فقد وصف الله الامة الإسلامية بقوله:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) سورة آل عمران آية ١١٠.

وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا). سورة البقرة آية ١٤٣.

فقد أعطى الإسلام المسلم الحق أن يعتنق ما يراه بصدد ظواهر الفلك، والطبيعة، والحيوان، والنبات، والإنسان، واعتناق ما يقنع بصحته من نظريات. ولا يختلف موقف الإسلام في نوع من

العلوم دون نوع آخر، فلم يحاول أن يفرض على العقول أي نظرية علمية معينة، سواء كانت في علم الفلك، أو الحيوان، أو النبات، أو الإنسان، ولم يتعرض لتفاصيل هذه الشئون، بل رسم الخطوط العريضة، ثم استحث العقول على النظر في الظواهر والخفايا، وحفز الناس على التأمل في هذه الشئون كلها واستنباط قوانينها العامة، وأثر في نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التي لا تثير الانتباه .

والإسلام لا يعادي العلم ولا يجافي العلماء، بل يجعل العلم فريضة مقدسة داخلة في العبادات والشعائر الدينية؛ حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، كما يقول صلوات الله عليه وسلامه في حق الرحلة في طلب العلم: (ومن سلك طريقًا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة). ويقول الله تبارك وتعالى في الحث على طلب العلم:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ). سورة النحل آية ٤٣.

(فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ولِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) سورة التوبة آية ١٢٢.

ويقول رسول الله صلى عليه وسلم: (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع).

والله سبحانه وتعالى ورسوله يحثان على طلب العلم والتعلم، فقد أشاد الله بالعلم وذلك عندما أنزل أول تنزيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حثه على القراءة، وذلك في قوله تعالى:

(اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ ورَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) سورة العلق الآيات ١، ٥.

وأشار سبحانه وتعالى إلى أدوات القراءة والكتابة، فأقسم بالقلم، وما يسطر القلم، والرق المنشور؛ أي الصفحات المكتوبة، والكتاب المسطور؛ أي الكتاب المكتوب الذي يقرأ، وذلك في قوله تعالى:

(ن، والْقَلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ) سورة القلم الآيتان ١، ٢.

(وَالطُّورِ وكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ) سورة الطور الآيات ١– ٣.

والعالم والمتعلم لهما أجر عند الله وثواب؛ وذلك لقول رسول الله ﷺ: (العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد). وقد أمر رسول الله ﷺ بالعلم والتعلم في حديثة: (أعد عالما متعلما ولا تعد بين ذلك). وقد وقف رسول الله ﷺ بين الناس خطيبا يعاتبهم على عدم التعليم والتعلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون، ولا يتعظون؟ والله ليتعلمن قوم جيرانهم

ويتفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة).

ولم يعرف التاريخ الإسلامي تلك الاضطهادات المنكرة المنظمة لرجال الفكر أو رجال العلم، فقد أشاد الله بالعلماء وربط الإسلام التقوى بالعلم، وجعل العلم سبيلًا إلى معرفة الله وخشيته، فقد قال الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ).

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والْمَلائِكَةُ وأُوْلُوا العِلْمِ) سورة آل عمران آية ١٨.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ) سورة المجادلة آية ١١.

ويفضل الله العلماء على الجهال؛ بل جعل فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، فيقول الله عز وجل : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ).

ويقول رسول الله ﷺ: (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)، كما يقول عليه أفضل الصلاة والسلام: (قليل العلم خير من كثير العبادة)، ويقول ﷺ: (يبعث الله العالم والعابد، فيقال للعابد ادخل الجنة، ويقال للعالم اشفع الناس كما أحسنت أدبهم).

وكما سبق القول لنا أن الإسلام لم يبن شرائعه على خوارق العادات وغامض المعجزات، كما أنه لم يقم على الغيبيات، إنما قام على التأمل، والمشاهدة، والنظر في آيات الكون وأسباب الحياة.

وقد أمر القرآن الكريم أن يتأمل المسلمون في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وخلق الإنسان وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وكثير من الآيات في كتاب الله عز وجل تدعو إلى التأمل في تكاثر النبات وتناسل الحيوان، وطفو بعض الأجسام على الماء، وغير ذلك من مسائل العلوم والفنون. ويوحي القرآن إلى الإنسان أن كل تلك الفنون والمعارف جديرة بالتطلع والتفكير مثل قوله تعالى:

(أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) سورة الغاشية الآيات ١٧ -٢٠.

(ومِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) سورة الشورى آية ٣٣.

(أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ). سورة الأعراف آية ١٨٥.

(وآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وأَعْنَابٍ وفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ). سورة يس آية ٣٣، ٣٤.

ثم ترى القرينة في عرضه الآيات التي تجل عن الحصر، يجعل خاتمتها دائما بقوله تعالى: (إنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ) .. (إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)، (إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، (إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ).

وهكذا ترى الآيات منبهة الأبصار، شاحذة السمع، آمرة العقل بالتدبر، والألباب بالتفهم، موقظة النعسان، كلها دعوة للتفكر، والتأمل، والبحث، والتنقيب، والاستطلاع. ففي جميع الآيات السابقة وغيرها من كتاب الله التي لم نستطع حصرها ومن أحاديث رسول الله ﷺ، لا يمكن أن يشتم الإنسان أن الإسلام فرض علمًا معينًا، أو طريقة معينة في البحث؛ بل ترك الهدف، والغاية، والوسيلة للإنسان في حدود ما رسمه من خطوط عريضة، فترك لكل فرد بعد ذلك كامل الحرية في تقرير ما يراه.

وقد كفل الإسلام للإنسان حرية الخطابة، وحرية الصحافة، وحرية التفكير والبحث العلمي، وبذلك كان المسلمون في أول عهد الإسلام والعصور التالية له سادة الأرض وعلماءها، ففتحوها وعمروها بعلمهم، وبحوثهم، وفنهم؛ والأندلس بفنها العربي لتشهد بذلك، وكفى أن يؤمر المسلم بأن يدعو الله حسب أمره في كتاب الله العزيز: (وقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا). سورة طه آية ١١٤.

الفصل الثالث

الحرية السياسية في الإسلام

الحرية السياسية هي مزاولة كل فرد بالغ رشيد عاقل في اختيار السلطة التنفيذية القائمة على تنفيذ التشريع وتطبيق القوانين، بما فيها رئيس الدولة؛ وذلك عن طريق الممثلين عن الأمة انتخابًا من بين أفراد الامة، بحيث تحوط الانتخاب ضمانات السلامة في إجرائها، وطمأنينة الناخب لطريقة إبداء رأيه حرًا دون تأثيرات خارجة عن إرادته.

والحرية السياسية في نظر الإسلام جزء أساسي من الحرية الإنسانية، حيث تتضمن حرية الفرد اختيار رئيس الدولة الذي كان يطلق عليه اسم الخليفة، أو الإمام، وحرية إبداء رأي الشورى لرئيس الدولة، وحرية نقد الحاكم، وحرية التظلم إلى رئيس الدولة، وحرية عدم طاعة الخليفة إذا خرج عن حدود الله وحاد عن الحق.

واختيار الحاكم في الإسلام يتبع فيه نظام جليل: هو اشتراك المسلمين جميعًا في اختياره؛ وذلك أن أهل الرأي في الأمة هم الذين يتولون اختياره، فإذا اتفق كلهم واتفقت غالبيتهم على أحد الأشخاص بايعوه، ثم يتبعهم باقي الشعب في مبايعة الخليفة، وبذلك يكون الإسلام قد قرر أن

اختيار الخليفة موكول إلى المسلمين، وأن الخلافة الصحيحة هي ما كانت نتيجة بيعة حرة لا ضغط فيها ولا إكراه، اشترك فيها جميع المسلمين، أو الغالبية الكبرى.

ومن هنا يمكن الوقوف على حكمة النبي ﷺ في أنه يعين الخليفة الذي يخلفه، وذلك حرصًا من النبي ﷺ من أن يستغل الخليفة بعده سلطته الدينية من تعيين الرسول له؛ إذ أن الإسلام لا يعرف طائفة دينية مثل طائفة الاكليروس في الكنيسة المسيحية، وليس الحكم في الإسلام أداة لقيام هيئة دينية معينة، ولكن الإسلام هو تنفيذ الشريعة الإسلامية، والحكم في الإسلام لا يحتاج إلى أكثر من تنفيذ تلك الشريعة.

والحاكم في الإسلام مطالب بالعدل بين الناس، فلا يحابي ولا يعادي إلا بقدر ما يتطلب منه تنفيذ تلك الشريعة، وألا يكون عداؤه إلا في سبيل الله، وأن يساوي في وجهته، وفي مجلسه حتى لا يطمع شريف في محاباته، ولا ييأس ضعيف من عدله، ولا يخاف إنسان حيفه، وهذا لما أمر الله به الحكام في قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ). سورة النحل آية ٩٠.

(وإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ). سورة النساء آية ٥٨.

(وإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) سورة الأنعام آية ١٥٢.

(ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) سورة المائدة آية ٨.

والحاكم كما أُمر من الله بالعدل والتقوى، أُمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك؛ حيث يبين الرسول أن أحب الناس إلى الله وأقربهم منه مجلسًا يوم القيامة الإمام الذي يعدل في حكمه، طبقًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن احب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جار).

ولم يكشف الإسلام بذلك، بل أوجب على الحاكم والسلطة التنفيذية ألا يبرم أمرًا من أمور الدولة الخطيرة التي تمس الكيان العام إلا إذا كانت هناك مشورة بين الحاكم والمحكوم، على أن تكون الشورى قائمة على احترام الحاكم لرأي المحكوم، وذلك بأمر الله عز وجل لنبيه في قوله تعالى: (وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) سورة الشورى آية ٣٨.

وذلك لأن الشورى أصل من أصول الإسلام، أوجدتها الشريعة الإسلامية تتحدد اشتراك الحاكم والمحكوم في الحكم، ولتجعل السلطة التنفيذية مسئولة أمام المسلمين جميعًا.

وقد جعل الإسلام السلطة التنفيذية محاسبة ومراقبة على كل ما يقوم به في حدود وظائفها العامة أمام المسلمين جميعًا، ويمكن الرجوع إلى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته بعد أن بايعه المسلمون في على الخلافة: (أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم). وفي خطبة أخرى له يقول: (إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني) . ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ألا إن رأيتم في أعوجاجًا فقوموني).

كما أوجب الإسلام على الحاكم أن يكون متواضعًا، لين الجانب، يبتسم في وجه الجميع ويبش لهم؛ وذلك تأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما دخل عليه أعرابي في المسجد يقود جمله، فبال الجمل وغضب لذلك بعض الصحابة، وأراد أن ينهر الأعرابي فمنعه النبي صلى الله عليه وسلم وقام من مجلسه قربة من الماء وطهر مكان البول، فكان لتواضع النبي أثر في اعتناق الرجل للإسلام، مما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجه إلى الصحابة قائلا: (لو نهرتم هذا الرجل لخرج كافرًا)

وصدق الله العظيم القائل في حق نبيه:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ولَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) سورة آل عمران آية ١٥٩.

وقد أجاز الإسلام للفرد حرية نقد الحاكم في حدود الأدب الإسلامي، فقد جعلت تلك الحدود لكل مواطن أن يبدي رأيه في تصرفات الحاكم؛ ولذلك عندما قال عمر بن الخطاب: (إن رأيتم فيّ اعوجاجًا فقوموني) قام إليه رجل فقال: (إن رأينا فيك اعوجاجا قومناك بالسيف)، ففرح عمر مما قال الرجل وشكر الله سبحانه وتعالى أن بلغ المسلمون هذا الحد من اليقظة والوعي. وأني لأذكر ما روي من أنه كانت توزع قطع من الأقمشة من بيت المال وضمنًا خص أمير المؤمنين قطعة، ولما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب طويل القامة،والقطعة لا تكفي له ثوبا، فأكملها من قطعة عبد الله ابنه، وفي يوم كان يخطب الناس فقام إليه الرجل وطلب منه أن يبين كيف حصل على ما يكمل ثوبه، وقال له: أكلت للناس بكيل ولنفسك بكيل آخر؟ فأشار عمر إلى عبد الله ابنه الذي وقف وقال: (لقد أعطيت ما خصني لأبي ليكمل ثوبه)، ثم اتجه عمر إلى الناس قائلا: (الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يسأل الحاكم ويقول له من أين لك هذا الشيء؟). ونحن بصدد عمر لا ننسى اليوم الذي اعترف فيه أن رأي امرأة أصوب من رأيه فقال: (أخطأ عمر وأصابت امرأة)، ونزل عمر على رأي المرأة لصوابه، ولم تأخذه عزة الحكم ولم يغره السلطان.

ويقول عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما انتقده الناس وأخذوا عليه بعض المآخذ (إني أتوب وأنزع، ولا أعود لشيء عابه المسلمون، فإذا نزلت من منبري فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم، فوالله لأن ردني الحق عبدًا لأذلن ذل العبيد).

ولتوفر هذه الصفات في الحكام، فقد أوجب الإسلام على المسلمين أن يطيعوا هؤلاء الحكام، وأن ينفذوا أوامرهم، وجعل الطاعة لولي الأمر طاعة مستمدة من طاعة الله ورسوله Pوذلك لقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ) سورة النساء آية ٥٩.

ولن يطاع الحاكم في الإسلام لذاته، وإنما يطاع لقيامه على شريعة الله ورسوله، وفي تنفيذه لهذه الشريعة دون سواه يستمد حق الطاعة، فإذا انحرف عنها سقطت طاعته ولم يجب لأمره النفاذ. ويقول صلى الله عليه وسلم: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة). ويقول صلى الله عليه وسلم: (اسمعوا واطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى).

وقد منح الإسلام الفرد حرية التظلم إلى رئيس الدولة من ظلم الولاة أو المبعوثين، وقد كان عمر يرسل إلى ولاته ويجتمع بهم في موسم الحج وينادي في الناس: من كانت له مظلمة على أحد الولاة فليتقدم للشكوى منه، وكان عمر يستمع إلى الشكاوي ويقوم بتحقيقها بنفسه. وذلك لم يكن مبتدعا من عمر حيث كان يقلد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسلفه أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وقد كان عمر أول من أنشأ ديوان المظالم، ونظم القضاء في الإسلام.

وإن تاريخ الإسلام لحافل بالأمجاد التي توضح ديمقراطية الإسلام في منحه الحريات بجميع أنواعها، وأن ديمقراطية الإسلام لتتبلور فيما حدث حين استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في شأن بعض الأسرى، أيقتلون، أم يطلق سراحهم في مقابل فدية يدفعونها؟ فأشار معظم الصحابة بقبول الفدية، وأشار عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ بقتلهم، فنزل عليه الصلاة والسلام على رأي الأغلبية، حتى جاء القرآن الكريم مؤيدًا رأي عمر وسعد فقال الله تعالى:

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا واللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) سورة الأنفال آية ٦٧.

فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم على رأي القرآن المؤيد لرأي عمر وسعد بن معاذ.

والإسلام يطالب الراعي والرعية على أن يعملوا على إرساء قواعد الحرية السياسية بحيث تحوط تلك القواعد الدعائم القوية لتلك الحرية المطلقة دون قيد، فيكون الحاكم راعيًا في رعيته، ومسئولا عنها. والرعية راعية الرقابة المحكمة على الحاكم، والسلطة التنفيذية حتى لا يخرج الحاكم عن الحدود المرسومة نتيجة تغافل وتهاون الرعية، لأن المسلمين أمام الله مسئولون عن نشر ورفع راية الدعوة الإسلامية في كل حدود استطاعته وإمكانياته على هدي الكتاب والسنة؛ وذلك لقول الله تبارك وتعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) سورة يوسف آية ١٠٨.

الفصل الرابع

الحرية المدنية في الإسلام

الحرية المدنية معناها إعطاء الفرد الرشيد البالغ العاقل الحق في تحمل الالتزامات العامة والخاصة في هذه الحياة؛ فالحرية المدنية تعني إعطاء ذلك الفرد الحق في أن يختار نوع العمل الذي يزاوله حسب طاقته الجسمانية والعقلية، والتكسب من شتى طرق الكسب المشروع، واختيار الزوجة التي تناسبه، واختيار المرأة الرشيدة العاقلة الزوج الذي يناسبها، وترتضيه أن يكون زوجًا لها، وحرية الإقامة في أي بلد يشاء، والهجرة والرحيل من أي مكان إلى أي مكان آخر، ونوع العلوم والمعارف التي يدرسها، وحرية الفرد في حق التملك، والبيع، والشراء، والهبة، والوصية، والرهن، وغير ذلك.

فقد أعطى الإسلام الفرد حق اختيار العمل الذي يتناسب مع إمكانياته، كما أعطاه حق التكسب من أي نوع من الأعمال المشروعة، دون أن يفرض عليه نوعا من العمل، او يكلفه ما لا طاقة له به، وذلك لقول الله سبحانه وتعالى:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ وسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) سورة البقرة آية ١٨٦.

ويقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: (لا تكلفوهم ما لا يطيقون، فإذا كلفتموهم فأعينوهم)، كما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يساعد العمال وتهيأ لهم أسباب تمكينهم من أداء عملهم وإتقانه، وذلك لقوله في الشطر الأخير من الحديث السابق (فإذا كلفتموهم فإعينوهم).

وقد حفز الإسلام المسلمين على العمل بأن زيّنه لهم وجعله شرفًا كبيرًا، وجعل العمل مسئولاً عن راحة العامل وتأمين نفقاته، حيث يقول الله عز وجل:

(ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وعَمِلَ صَالِحًا) سورة فصلت آية ٣٤.

(لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ومَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ) سورة يس آية ٣٥.

(ولَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) سورة النحل آية ٩٣.

(مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ). سورة هود آية ١٥.

(ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ولِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ) سورة الأحقاق آية ١٩.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) سورة فصلت آية ٨.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً). سورة الكهف آية ١٠٨.

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى) سورة آل عمران آية ١٩٥.

والسُنّة الكريمة تطابق القرآن الكريم في هذا الشأن، فالأحاديث النبوية التي تجل عن الحصر كلها تحفز على العمل وتدعو إليه، وتحيط بالعمل والعامل في نفس السياج الذي أحاطهما به القرآن؛ فيقول صلى الله عليه وسلم في شرف الكسب: (إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده). ويقول صلى الله عليه وسلم في وجوب إجادة العمل: (إن الله يحب من العامل إذا عمل عملا أن يحسنه، وفي رواية أخرى أن (يتقنه). وفي الدفع إلى العمل، وتزيينه، وتحسينه في نظر العامل: (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله به وجهه، خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)، ويقول عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى (اليد العليا خير من اليد السفلى)، ويقول عليه أذكى السلام في شأن وجوب راحة العامل (إن لبدنك عليك حق، وإن لزوجك عليك حق، وإن لربك عليك حق، فأد كلا حقه).

والإسلام يهتم بموظف الدولة والعامل فيها، ويوليه فيها، ويوليه رعاية خاصة تجعل له الاستقرار والأمان اللذين يمكنانه من أداء عمله في كفاية ونزاهة؛ وذلك أن جعل من نفقات الزكاة جزءًا للعاملين عليها، لقول الله عز وجل: (والْعَامِلِينَ عَلَيْهَا والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفِي الرِّقَابِ).

وقد أولى رسول الله صلى الله عليه وسلم موظف الدولة تلك الرعاية؛ فأوجب أن يكون للعامل الحق من ناتج عمله، وبهذا التكافل يمكن أن تبنى الدولة بناء سليمًا؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ولى لنا عملا وليس له بيت فليتخذ بيتا، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له دابة فليتخذ له دابة).

كما منح الإسلام الفرد حق اختيار الزوجة الصالحة التي تناسبه وتتكافأ معه، والتكافؤ شرط من شروط الإسلام التي اشترطها وجعلها ركنًا وشرعًا لا يكون عقد الزواج بدونهما صحيحًا، وبذلك يكون الإسلام قد وهب الفرد ما لم يعطه دين آخر، أو أي قانون وضعي، وهذا العطاء وهذه المنحة تتجلى في قول الله عز وجل:

(والْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وأُحِلَّ لَكُم مَّا ورَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا). سورة النساء آية ٢٤.

كما قرر الإسلام حق المرأة الرشيدة العاقلة في اختيار زوجها المتكافيء معها؛ وذلك باختيارها ورضاها دون إكراه أو ضغط، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأيم أحق بنفسها من وليها).

وقد قرر الإسلام منح الفرد حق التنقل من بلد إلى بلد والإقامة إلى أي مكان يشاء من أرض الله دون إكراه؛ وذلك لقول الله عز وجل: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ). آية ١٥سورة الملك .

كما أوجب على الذين لا يجدون في بلادهم وسيلة من وسائل العيش سواء كانوا مستضعفين من الحكام، أو ضاقت بهم سبل الرزق أن يهاجروا إلى غيرها من أرض الله الواسعة، وقد أطلق الله على الذين استكانوا للكسل، أو الاستضعاف والتكاسل أنهم ظلموا أنفسهم في قوله عز وجل:

(إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيرًا). سورة النساء آية ٩٧.

وقد قرر الإسلام حرية الفرد في اعتناق ما شاء من المباديء، ودراسة ما يشاء من العلوم والفنون، بل فرض عليهم البحث والتحري والتحقق؛ وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يبين وجوب طلب العلم من المهد إلى اللحد حيث قال: (يظل العبد يطلق عليه عالما حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل). ولكن لم يفرض الإسلام

على الفرد علمًا معينا، بل تركه لموهبته وقدرته على الفهم والبحث، وقد بينا ذلك في فصلي (الحرية الفكرية) من هذا الكتاب.

ويقرر الإسلام لكل إنسان حق التملك، وهذا الحق نتيجة تسخير كل ما في الكون من أموال، ومنافع، وأرض، وبحار، وأنهار لهذا الإنسان؛ وذلك يتوارد مضمونه في آيات القرآن الكريم التي نتخذ منها على سبيل المثال آية، ولله المثل الأعلى:

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) سورة الجاثية الآيتان ١٢، ١٣.

والملكية مصونة يصونها القانون ويحرسها إذا كانت الملكية بالطريق المشروع، كما أوجب الإسلام على المجتمع أن يحمي هذه الملكية بأن أمر بالعدل في الإنفاق وعدم التبذير لقوله عز وجل: (ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ) سورة البقرة آية ١٨٨.

كما قرر الإسلام حق الفرد في البيع، والشراء، والرهن، والوصية، وقد بينا ذلك في المساواة الإنسانية والاقتصاد في فصول سابقة من هذا الكتاب. ولما كان الإسلام أحكامه متصلة لا يمكن الفصل بينها، اضطررنا إلى تكرار الآيات كأدلة لبعض نواحي، وأبواب، وفصول هذا الكتاب.. والله الموفق.

الفصل الخامس

الحرية الدينية في الإسلام

الإسلام دين الخلود والنظام العالمي الذي جاء لينظم مستقبل البشرية، وهذا النظام مستمد من أن محمدًا رسول الله إلى الناس كافة، وأنه خاتم النبيين، وأن دينه هو الدين القويم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ) سورة سبأ آية ٢٨.

(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا). سورة الأحزاب آية ٤٠.

لذا كانت سياسة الإسلام السمحة النبيلة أساسا لما سار عليه حيال أنواع الحرية، وتتبلور تلك السياسة وتتجلى تلك الأسس في الحرية الدينية، أو ما يسمى بالتعايش الديني في الإسلام، حيث قرر مبادئ هي أرفع ما وصل إليها التشريع الحديث بصدد حرية العقيدة والدين.

أحد هذه المبادئ :

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ) سورة البقرة آية ٢٥٦.

فلم يفرض الإسلام على غير المسلمين اعتناقه أو الإيمان به، بل ترك لهم أقصى درجات الحرية والحماية في مزاولة عباداتهم وإقامة شعائرهم الدينية وفرائضهم التعبدية. ويبلغ من دقة إحساسه لهذه الحرية أن فرض الزكاة على المسلمين وأوجب ما يقابلها الجزية على غيرهم، وعدم فرض الزكاة على الذميين وأهل الكتاب يرجع إلى أن الزكاة شعيرة تعبدية وركن من أركان الإسلام؛ لذلك لم يشأ أن يفرض أي نوع من أنواع العبادة الإسلامية على غير المسلمين، والتزم بحماية دافعي الجزية وتأمينهم في عقائدهم ومعاشهم.

وإذ يقول مفترٍ أن الإسلام فُرِض على الناس بالسيف، فلنرد عليه: أن الإسلام لم يفرض اعتناق مبادئه وتعاليمه بالسيف، بل سار المسلمون في عرض دينهم على أساس من الحرية، وإذا كان الإسلام قد أمر بقتال المشركين، فإنما هي الحرب لرد العدوان، حيث قال الله تعالى:

(وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ). سورة البقرة آية ١٩٠.

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) سورة الحج الآيتان ٣٩، ٤٠.

والحرب في حالة نكث العهد والكيد للدين الإسلامي، والخروج عن العرف والتقليد الدوليين في حماية الأرواح والأنفس.

(وإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ). سورة التوبة آية ١٢.

والحرب حيث تستوجب الاعتبارات التي تتعلق بسلامة كيان الدولة والقضاء على الفتنة؛ فقال الله تعالى:

(وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). سورة الأنفال آية ٣٩.

(لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ). سورة البقرة آية ١٩٣.

ومع ذلك فقد كان المسلمون يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة الإسلامية القائمة، ودفع الجزية حق على غير المسلمين، ودفع الزكاة من المسلمين إنما هو

مشاركة من الطرفين لحماية الدولة، وبنائها من مسئولية المسلمين عن حماية الذميين. ولقد بلغت الحماية إلى حد بعيد جدًا؛ وهو مناصرة هؤلاء الذميين ضد أعدائهم، وقد بلغ الإسلام في الوفاء بعهوده لغير المسلمين إلى حد عدم نصرة المسلمين أنفسهم على المعاهدين.

(وإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ). سورة الأنفال آية ٧٢.

وقد أوجب الإسلام على المسلمين احترام عقائد غيرهم، وشعائرهم، ومعابدهم، وقد رسم ذلك ووضحه قول عمر بن الخطاب في رسالته لأهل بيت المقدس: (هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم).

وقد كان الذميون في عهود الإسلام المتوالية يعاملون معاملة المسلمين في جميع وشتى أنواع المعاملة في الحياة؛ وذلك لقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا). ويذكر التاريخ أن عمر كان يتجول في انحاء المدينة ليستحسن أحوال الناس، فرأى يهوديًا مسنًا يتسول ويسأل الناس إلحافا، فناداه وسأله أدفعت الجزية إبان قوتك وشبابك؟ فأجاب نعم، وهنا قال عمر: (ما دمت قد دفعت الجزية صغيرًا وجب على بيت المال أن يرعاك كبيرًا)، وفي رواية أخرى: (دفعت الجزية قويا، فوجب على

بيت مال المسلمين أن يرعاك ضعيفًا)، وصرف له من بيت مال المسلمين ما يكفيه ويكفي عياله.

ومبدأ آخر شرعه الإسلام في شأن غي المسلمين: هو حرية البحث والمناقشة في الشئون الدينية؛ فأمر المسلمين أن يلتزموا طرق الإقناع والمنطق السليم مع أهل الأديان الأخرى، وقرع الحجة بالحجة والبينة بالبينة؛ وذلك لما أمر الله به نبيه محمدًا ﷺ في اتباع طرق الدعوة إلى الله بالحسنى، وقوة الحجة، والبرهان بدون إكراه؛ حيث قال الله تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) سورة آل عمران آية ٦٤.

وفي هذا يقول الله تعالى مخاطبًا رسول الله عليه الصلاة والسلام:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) سورة النحل آية ١٢٥.

ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا المؤمنين:

(ولا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) سورة العنكبوت آية ٤٦.

وفي الحجة، والبرهان، ومطالبة أهل الكتاب والذميين من اليهود والنصارى بأن أمر الله نبيه أن يخاطبهم ويطالبهم:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

(هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا).

(قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

فإن أصروا على معتقداتهم، فقد بين الله لرسوله الطريق بقوله سبحانه وتعالى:

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وجْهِيَ لِلَّهِ ومَنِ اتَّبَعَنِ وقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَوْا وإن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ واللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) سورة آل عمران آية ٢٠.

ومبدأ ثالث قرره الإسلام: هو أن الإيمان لا يكون صحيحًا إلا إذا كان منبعه من القلب عن يقين وإقناع، لا عن تقليد واتباع. وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم في عقائدهم ونشر دينهم الأدلة العقلية، والمنطق السليم، والدعوة إلى النظر والتفكير، ورفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل، لأن الإسلام لا يقبل أن يمن الذين آمنوا به على الله إيمانهم .

(قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإيمَانِ) سورة الحجرات آية ١٧.

والإسلام إذ يدع للآخرين حريتهم في هذه الحدود، يتأثر بروحه الإنسانية العامة وهو على ثقة تامة بأنهم متى أتيح لهم أن ينظروا في الإسلام نظرة تدبر وإمعان، دون حيلولة من القوة المادية، أو الجهالة الفكرية؛ فإنهم بفطرتهم يفيئون إلى الإسلام الذي يحقق ما هدفت إليه جميع الديانات من قبله من مساواة مطلقة، وتكامل تام، وتكافل لا يعدوه تكافل، ووحدة إنسانية، وحرية لا نهائية.

خاتمة

الكفة الراجحة

يولد الإنسان على دين آبائه، ويشب على مبادئهم، ويتربى جسمانيًا وعقليًا متشبعًا بآرائهم، مؤتمرًا بأمر دينهم، وربما فاق قومه تطرفًا وزادهم تمسكًا بدينه، حتى إذا شب عن الطوق، وفي ساعة من ساعات الصفاء الروحي والحياد العقلي تأمل فيما يدين به، وناقش ما يلقى عليه من تعاليم؛ فتساوره بعض الشكوك. ومن هنا تكون الشرارة الأولى التي تنطلق فتولد عنده الصراع الفكري الذي يعتبر بداية التحرر بما قد يسميه في ذلك الوقت متناقضات، أو على الأقل ما يظنه متناقضات، ثم تتطور تلك التي ظنها إلى مسائل تعتبر في نظره شائكه تتطلب الحل، فيضطر أمامها إلى البحث والتنقيب عن الحقائق.

وفي غمرة البحث والتنقيب قد يطرق سمع ذلك الإنسان نداء يدعوه إلى اعتناق مبدأ من المباديء، أو دين من الأديان، وبعد نظرة خاطفة إلى مظهر هذا الدين أو ذاك المبدأ يرفض هذا المبدأ وذلك الدين وينفر؛ بل يعرض ويفر منهما، ويكون الرفض، والقرار، وسبب النفور والإعراض نتيجة تنسم رائحة التكليف المبني على الإرغام والإكراه على اعتناق هذا أو ذاك، دون مناقشة أسراره وتعاليمه، والبحث في خفاياه، لأنه من العسير على العقل الواعي، والوجدان المتحرر، والضمير اليقظ، والإلهام

الفطري أن يطمئن لدين، أو مبدأ يجبر معتنقيه على الإيمان به؛ وذلك يخالف ما فطر عليه الإنسان من حرية التفكير والبحث في كنه ما يدري وما لا يدري، وما يريد أن يدري.

وقد طرأ على الإنسان الرغبة الملحة التي تبلغ به حد التطفل، فيسترق السمع في غفلة من دينه الذي ولد وشب عليه إلى صدى دعوة تدعو إلى دين آخر، فإذا به قد وجد ضالته المنشودة، وأصاب الهدف الذي يبحث عنه، والغاية التي كان يحلم بأمل الوصول إليها بشتى الوسائل؛ فيأخذ الدين الذي وافق هواه وحل جميع المسائل التي اعترضته، وعالج جميع ما صادفه من مشاكل، ووضع حدًا للصراع الفكري، فيضطر إلى دراسة خفايا هذا الدين، والبحث عن مدى جدية الدعوة الجديدة، ومدى مقدرتها على موافقة الهوى الذي يكون قد استبد بذلك الإنسان الذي يريد أن يسير وراء عقله الفطري حرًا طليقًا، دون النظر إلى الأبوة، أو البنوة، أو العشيرة، أو الأموال التي تكون قد أضمحلت قيمتها أمام إلحاح الفطرة التي تدفع الإنسان دفعًا قويًا للبحث عن الحقائق.

وكلما كانت الحقيقة التي يُدعى الإنسان إلى الإيمان بها سلسة واضحة لا تعقيد فيها، ولا تكليف، ولا إكراه، تحمل في ظاهرها وباطنها ما يتفق والفطرة البشرية التي فطر الله عليها خلقه كانت حقيقة غنية بوسائل الدعوة نفسها ولمبادئها، ويتهافت الناس على الإيمان بها لأنها لا تحتاج إلى دعاة يستعملون أساليب الكياسة والفطنة المدعمة بمعسول الألفاظ والمنطق الخلاب حتى يجرون إليها المعتنقين إليها جرًا، ويجذبون المؤمنين

إليها جذبًا؛ وذلك لأن الحقائق ليست بضاعة تتعلق بمطالب الجسد الترابي، إنما هي مطلب الروح والعقل، والروح والعقل يبغيان وينشدان الحقائق الواضحة التي لا التواء فيها ولا دوران.

ومؤلف هذا الكتاب صادفته الحالات الثلاث، ودار في فلكها، وأصطلى في أُتون الفكر ردحًا من شبابه؛ فقد ولد على دين من أديان أهل الكتاب، ونشأ يقلد أبويه مرتسما خطى أجداده، مؤديًا طقوسهم وشعائرهم. حتى بلغ أشده ونال حظًا من علم الدنيا، وجه إلى تعلم أسرار دينه، ثم دفع به في هذا المضمار وزج به في طريق ينتهي به أن يكون دعامة من دعائم الدعوة لهذا الدين، ورب قائدًا من قادته .

وقادتني الدراسة إلى إصاخة السمع إلى عدة نداءات وصلت إلى سمعي نتيجة الثغرات التي أوجدتها الريبة والشك فيما لم يستطع العقل قبوله، وما لم يطمئن إليه الضمير لحظه الطهر الوجداني مما أدرسه، أو ما أعد لتحمله من المهام؛ فكان لتلك النداءات حظ من الإنصات الذي أعقبه التفكير في الأديان السابقة على ديني؛ فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار، حيث وجدت بعد التمحيص أن أغلال دين أخف وطأة من قيود ما سبقه من الأديان من نواحي التكليف، والإكراه، والإرغام، نتيجة الطغيان الكهنوتي والكنسي.

وبعد أن أكملت دراستي ولم أكن قد أصبت ما رميت إليه، وما أتعبني الكد في البحث عنه، تحولت إلى البحث في الدين الإسلامي. وفي

هذه المرة لم تكن بغيتي الفرار من ديني، ولكن كان قصدي من البحث في الإسلام استخراج العيوب، وتلمس الأخطاء، والوقوف على المتناقضات التي أوحى إليّ بها من أساتذتي وأهلي. ولكن ما كدت أطرق الباب وأمسك بأول الخيط حتى دخلت باب المقارنة بين ذلك الدين وما سبقه من أديان، وخرجت من تلك المقارنة وقد استولى عليّ سحر الحقيقة الناصعة، والمبادئ الوضاءة، والتعاليم الصريحة لا اعوجاج فيها، ولا التواء، ولا سلطان لكاهن، ولا سلطة لكنيسة، ولا طغيان لأحبار.

وجدت لكل سؤال جوابًا شافيًا، ووجدت فصل الخطاب فيما لم يستطع أي دين سابق؛ سواء كان وضعيًا، أو منحدر من الأديان السماوية، أو مبدأ من المبادئ الفلسفية. وقولي منحدرًا يرجع إلى انحدار الديانات على يد رجال الدين الذين خرجوا بها عما جاءت من أجله، ما لم يستطع كل هؤلاء أن يعطوني جوابًا عنه فيه اقناع، أو اقتناع. وجدت أن ما زعموه في الإسلام عيوبًا مزايا، وما ظنوه متناقضات حكمًا، وأحكامًا، وشرائع فصلت لأولي الألباب، وأن ما عابوه على الإسلام كان علاجًا للبشرية التي طالما تردت في بيداء الظلمات حتى أخرجها الإسلام من الظلمات إلى النور، وهدى الناس بإذن ربهم إلى صراط مستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين وحسن أولئك رفيقا، غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين ضلوا وأضلوا ودخلوا بالناس أبوابًا من الكفر، والشرك، والإلحاد. وجدت الإسلام قد أخرج أسرابًا من شبه الجزيرة عاشوا في بيداء الشرك والوثنية إلى التوحيد الخالص، دون اصطدام مع الفطرة، أو واقع الحياة والطبيعة

البشرية؛ مما جعل الإسلام يأخذ بلبي ويقبض على لباتي، ومن واضح أحكامه ونور تعاليمه، وصدق رسالته حملني على الإيمان به والتصديق بما جاء به مُحَّد ﷺ؛ فانقدت إليه دون إكراه، أو ضغط، او إغراء. ولكني آمنت به عن تعقل، وتفكر، ودراسة، وتمحيص، وتطلع، ومراجعة، وبحث. والحمد لله الذي أنعم علي بنعمة الإيمان بدين قال الله في حقه: (إن الدين عند الله الإسلام). وحيث أن من لم يؤمن بالإسلام فقد خسر دينه ودنياه، وحرمت عليه الجنة في أخراه: (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا هدانا الله)، (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدًا) .

واعترافًا بنعمة الله عليّ وتفضله بأن هداني للإيمان، وبعد أن حاولت جهد استطاعتي -وإن كان الجهد جهد المقل- أن أرد بعض الجميل لله بتوضيح ما علمني إياه في هذا الكتاب، أردت أن أختم هذا الكتاب بموجز أبين فيه طبيعة الإسلام المبنية على حرية الفكر وتحرر الوجدان، والمتفقة مع ما تنادي به فطرة الإنسان المتحرر من القيود والأغلال، قبل أن تطغى على عقله القوى المادية، أو الجهالة الفكرية، أو القيادة الدينية، أو السلطة الكنسية.

إن طبيعة الإسلام تدعو إلى التوحيد الخالص:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُلَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) سورة الإخلاص.

ولا تدعو إلى تأليه لبشر، ولا نسبة بنوة النبي إلى الله:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ) سورة الكهف.

وأعطت الإنسان مركزه الحقيقي وحريته فيما يختار لنفسه من سعادة في الدنيا والآخرة، أو من شقاوة يوم لا تغنيه دنياه عن آخرته: (بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) سورة القيامة.

وقد أحاط الإسلام الإنسان بالعلم حتى لا يقع في الشرك الذي وقع فيه غيره، ورسم له الطريق الذي يسير عليه، وأرسل له النبي ومعه كتاب أنزل عليه من ربه يحمل بين ضفتيه تبيان كل شيء، ما رأى خيرًا إلا وأمر به، وما رأى شرًا إلا ونهى الناس عنه.

(الم، ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) سورة البقرة آية ١، ٢.

(حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سورة فصلت من ١ – ٣.

وهيأ للإنسان أسباب الحياة لكي يعيش في دنياه متمتعًا بزينة الله مع العمل للآخرة، لا رهبانية ولا عكوف في الصوامع، إنما ليعيش راهب الليل فارس النهار.

(وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ولا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ) سورة القصص آية ٧٧.

الإسلام بطبيعته وضع المجتمع في الأهداف الاولى التي هدف إليها، فقرر رباط الأسرة ونظام المجتمع، كما قرر المساواة الاقتصادية ومنح معتنقيه الحرية بشتى أنواعها؛ سواء كانت حرية فكرية، أو حرية سياسية، أو حرية مدنية، أو حرية دينية، وترك للمسلم حرية مناقشة دينيه، وذلك ثقة من أن المسلم كلما تبحر في علوم الإسلام، كلما تمسك به وازداد إيمانًا.

وأخيرًا أقول قد رجحت كفة الإسلام في الميزان، هدانا الله إلى العمل بمبادئه، وصدق الله العظيم:

(اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا) سورة المائدة آية ٣.

وفي الختام ندعو الله أن يتوفانا مسلمين عاملين بكتابه وسنة رسوله الأمين.

(رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ) سورة آل عمران آية ٨.

(رَبَّنَا وآتِنَا مَا وعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ ولا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَادَ) سورة آل عمران آية ١٩٤.

الفهرس

مقدمة ٥

الباب الأول

الأديان والعقيدة

الفصل الأول: الديانة البرهمية ١٧

الفصل الثانى: الديانة البوذية ٢٣

الفصل الثالث: الديانة المصرية القديمة ٢٩

الفصل الرابع: الديانة الصينية والكنفوشيوسة ٣٦

الفصل الخامس: الديانة الكلدانية ٤١

الديانة الفارسية (المجوسية) ٤٢

الديانة اليونانية ٤٣

الديانة الرومانية ٤٤

الفصل السادس: (أ) الديانة الإسرائيلية ٤٥

الفصل السابع: (٢) المسيحية ٥٣

(ب) المسيحية بعد المسيح ٥٦

الفصل الثامن:الإسلام ٦٤

الفصل التاسع:ميزان العقائد في الأديان ٧٩

الباب الثانى

الإنسان والإنسانية

الفصل الأول:الإنسان في الأديان ٨٧

الفصل الثاني:الإنسان في الإسلام ٩٢

الفصل الثالث:الإنسان في مدرسة الإسلام................١٠١
الفصل الرابع: تهيئة أسباب الحياة للإنسان ١١٤

الباب الثالث

المجتمع

الفصل الأول: الأسرة في الأديان ١٤١
الفصل الثاني: الأسرة في الإسلام ١٤٩
الفصل الثالث:المساواة الإنسانية في الأديان ١٧١
الفصل الرابع: المساواة الإنسانية في الإسلام ١٨٠
الفصل الخامس: المساواة الاقتصادية في الأديان: ١٨٩
الفصل السادس: المساواة الاقتصادية في الإسلام..........١٩٤

الباب الرابع

الحرية

الفصل الأول: الحرية في الأديان ٢١٦
الفصل الثاني : حرية الفكر الإسلامي.....................٢٢٠
الفصل الثالث:الحرية السياسية في الإسلام.................٢٢٦
الفصل الرابع: الحرية المدنية في الإسلام ٢٣٤
الفصل الخامس: الحرية الدينية في الإسلام.................٢٤٠
خاتمة...٢٤٧